المسيحية

من نبتة إلى المهدية

بقلم الأستاذ:

عبد المحمود أبو شامة



المسيحية

من نبتة إلى المهدية

بقلم الأستاذ:

عبد المحمود أبو شامة

كتاب يؤرخ لدول النوبة الثلاث ومسيحيتها وحروبها ثم تلاشيها وظهور المسيحية مرة أخرى إبان الحكم التركي للسودان واضمحلالها إبان حكم المهدية.

تقديم

لصاحب الفضيلة مولانا دفع الله الحاج يوسف مدني*

درج الأستاذ/ عبد المحمود أبو شامة في كل مؤلفاته التي تتناول جانباً من تاريخ السودان لا سيما فترتي الحكم التركي والمهدية، على اتباع منهج متميز يجعل لمؤلفاته قيمة علمية فريدة. إنه لا يكتفي بسرد الحدث التاريخي كما ورد في المراجع المتداولة ولا يقتصر على مقارنة مختلف الروايات وترجيح رواية على أخرى، وإنما يجهد نفسه في تحقيق متأن في كل حدث تاريخي مستعيناً بكثير من المصادر التي لم تتوفر لمن سبقه في الكتابة، لا سيما المصادر التي مضت المدة القانونية على سريتها وصارت متاحة للباحثين. لقد ساعده على ذلك قدرته على استيعاب الأحداث، ومنهج نقدي وإدراك واع للمؤثرات المختلفة التي أدت إلى ذلك الحدث الذي يتصدى للكتابة عنه.

إن عمله بهيئة الإذاعة البريطانية وفي الإذاعة الهولندية وقيامه

---

* مولانا دفع الله الحاج يوسف مدني، وزير التربية والتعليم، وزير الشئون الدينية والأوقاف، ورئيس القضاء الأسبق، والمحاضر بكلية القانون بجامعة الخرطوم

بمهمة المراسل الحربي في بعض الأحايين، مكنه من الاطلاع على الكثير من الوثائق، وذلك أمر لم يتح لغيره من الكتاب. أخذ بهذا المنهج في سفره القيم (من أبا إلى تسلهاي) الذي نفذ إلى ما وراء الأحداث، وأضاف الكثير من المعلومات والتحليل العلمي الواعي.

وتتميز كتابة الأستاذ/ عبد المحمود بميزة أخرى، إذ تشتمل على بعد إنساني يضفي على الحدث التاريخي كما يرويه لوناً وطعماً من ناحية، ومن ناحية ينفذ إلى ما وراء الحدث فيتناول الأشخاص الذين شاركوا في صنعه بالدراسة والتحقيق في دوافعهم ومشاعرهم، فتحس وأنت تقرأ ما كتب، كأنك تعرفهم معرفة وثيقة، وتكون أكثر تفهماً للدوافع التي حملتهم على ما أتوا من أفعال. ليس ذلك فحسب بل إنه يتميز بمقدرة فائقة في رواية الحدث في إطاره الزماني والمكاني، محيطاً بأبعاده القطرية والإقليمية والدولية لتصبح قراءة ما كتب متعة ذهنية لا تعادلها متعة، بل تدفع بالقارئ إلى التفكير العميق والتفاعل الوجداني مع الحدث.

ولقد سعدت بقراءة مسودة سفره القيم هذا (المسيحية من نبتة إلى المهدية) الذي يتناول تاريخ دخول المسيحية في السودان متبعاً الظروف التى أحاطت بذلك ومؤرخاً لكل من كان له إسهام في ذلك

العمل. وهو لا يعالج دخول المسيحية في السودان كحدث منفصل عن تاريخ السودان الغابر والحضارات التي ازدهرت وتلاشت. ولا يتناول ذلك الحدث منفصلاً عن ما كان يجري في القارة الإفريقية ولا الظروف العالمية، بل هو يربط بين تلك الأحداث ناقداً ومحللاً، ويخلص إلى نتائج ذات قيمة علمية وفكرية تساعد القارئ على فهم صحيح لتاريخ السودان في إطاره المتكامل وهذا أمر ذو أهمية بالغة حتى لا نخطئ في فهم وقراءة التاريخ، فنخطئ في فهم الحاضر، ونقصر عن استقراء المستقبل.

وأكثر من ذلك، من خلال ذلك المنهج وذلك التناول تبرز مكونات الشخصية السودانية وميزاتها والقيم التي تأصلت في وجدان السودانيين. وبالرغم من أن تناوله لتاريخ السودان كان مقدمة لما هو بصدده إلا أنه كان تناولاً موجزاً وموضوعيا ومفيداً. ومن خلال ذلك صحح الكثير من المسلمات التي تناقلها كتاب التاريخ وأبرزها العلاقة بين مختلف الأحداث التاريخية وتأثير بعضها على بعض. والعلاقة بين التبشير في ذلك العهد وسعي الدول الكبرى لتأمين مصالحها في القرن الإفريقي. وقد لعب المبشرون الاوائل دوراً كبيراً في سعيهم للحصول على الدعم لنشر الديانة المسيحية في دفع الدول الكبرى في ذلك الوقت للاستفادة من المعلومات المتوفرة والتخطيط بغرض

الهيمنة الاستعمارية. وتحلل الدراسة القيمة موقف الحكم التركي من التبشير، وموقف الدولة المهدية، وتضع ذلك في سياقه التاريخي الصحيح.

لقد أثبت الكتاب بالسرد التاريخي والتحليل للأحداث الموثقة أن الدولة المهدية - تمسكا بموقف الإسلام من أهل الكتاب - قد أحسنت معاملة المسيحيين الذين كانوا في السودان، وتجاوزت عن أخطائهم المتمثلة في التعامل مع أعدائها في ظروف الحرب، بتخزين السلاح أو بإرسال المعلومات إلى أجهزة الاستخبارات التي تعمل ضد الدولة، وأضفت كل حقوق المواطنة على كل من اعتنق الإسلام صدقاً أو رياءً، وأتاحت الحرية لمن أراد ان يتمسك بدينه من المسيحيين رجالاً أو نساءً.

ومن ناحية أخرى فإن الكتاب يؤرخ في سياق ذلك لمدينة الخرطوم، ويصف حياة سكانها بصورة مفيدة وممتعة، ومن خلال ذلك يبرز التسامح الديني الذي كان وما زال سمة السودانيين لإدراكهم العميق لتعددهم العرقي والثقافي.

إن الكتاب إضافة حقيقية لدراسة تاريخ السودان وعمل رائد في ألا تقتصر الدراسة على تداول ما ورد في مختلف المصادر

المعروفة، بل تستوعب ما يحيط بكل حدث تاريخي من أبعاد مختلفة لا سيما البعد الإنساني.

جزى الله خيراً الأستاذ/ عبد المحمود أبو شامة، وأمد في عمره، حتى يتحف المكتبة العربية بالمزيد من هذه الأعمال المتميزة.

دفع الله الحاج يوسف مدني
أغسطس ٢٠٠١م

تقديم

الأب جيوفاني فانتيني *

إننا نرى تصاعداً مستمراً لدى السودانيين – ولا سيما الشباب – في اهتمامهم بمعرفة تاريخ بلادهم. الدليل على ذلك جماعات طلبة المدارس – الأساس والثانوي – تتدفق على المتحف القومي بالخرطوم. دليل آخر، هو طلبة الجامعات الباحثون في عصور ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا. كما ألاحظ أيضا بحوث طلاب الجامعات في العصر المسيحي.

إن الأدوات والأسلحة الحجرية، والأسود المفترسة بوجوه بشر، وصفوف أبي الهول، وتماثيل جبارة لملوك حكموا هذه البلاد، وأواني منازلهم، واحتفالاتهم، وقصورهم، وصور معابدهم، كلها أشياء يندهش لها المشاهدون بالمتحف فقد اختفى

---

* الأب جيوفاني فانتيني هو أكبر سلطة علمية في تاريخ المسيحية النوبية لكل المناهج الكنسية بالسودان. رُسّم قساً لخدمة الكنيسة الكاثوليكية بالسودان في عام ١٩٤٧م، تعلم اللغة العربية، ونال درجة الدكتوراه في اللغات والحضارة الشرقية من جامعة نابولي. انضم عضواً لبعثة جامعة روما للتنقيبات الأثرية في السودان بين عامي (١٩٦٧-١٩٧٠م). أصبح أيضاً عضواً في جمعية الدراسات النوبية بوارسو عام ١٩٧٢م. إنه مؤلف لكتب عديدة عربية وإنجليزية في التاريخ المسيحي النوبي، وكتب في ذلك الكثير من المقالات الصحفية.

فن صنعها وترك الناس استعمالها.

وربما يتساءل زائر المتحف القومي عن الفنانين الذين صنعوا تلك التماثيل والصور، وبلغوا في فنهم درجة متقدمة من الهندسة والفيزياء والذوق الفني الجميل الذي قد لا يستطيع صنعه اليوم حملة الدبلومات الجامعية.

أجل إن زيارة المتحف مفيدة لاكتشاف الثقافة والمهارة والحضارة التي كانت لأناس لم نعرف شيئاً عنهم ولكنهم عاشوا بهذه البلاد وتركوا لنا آثارهم.

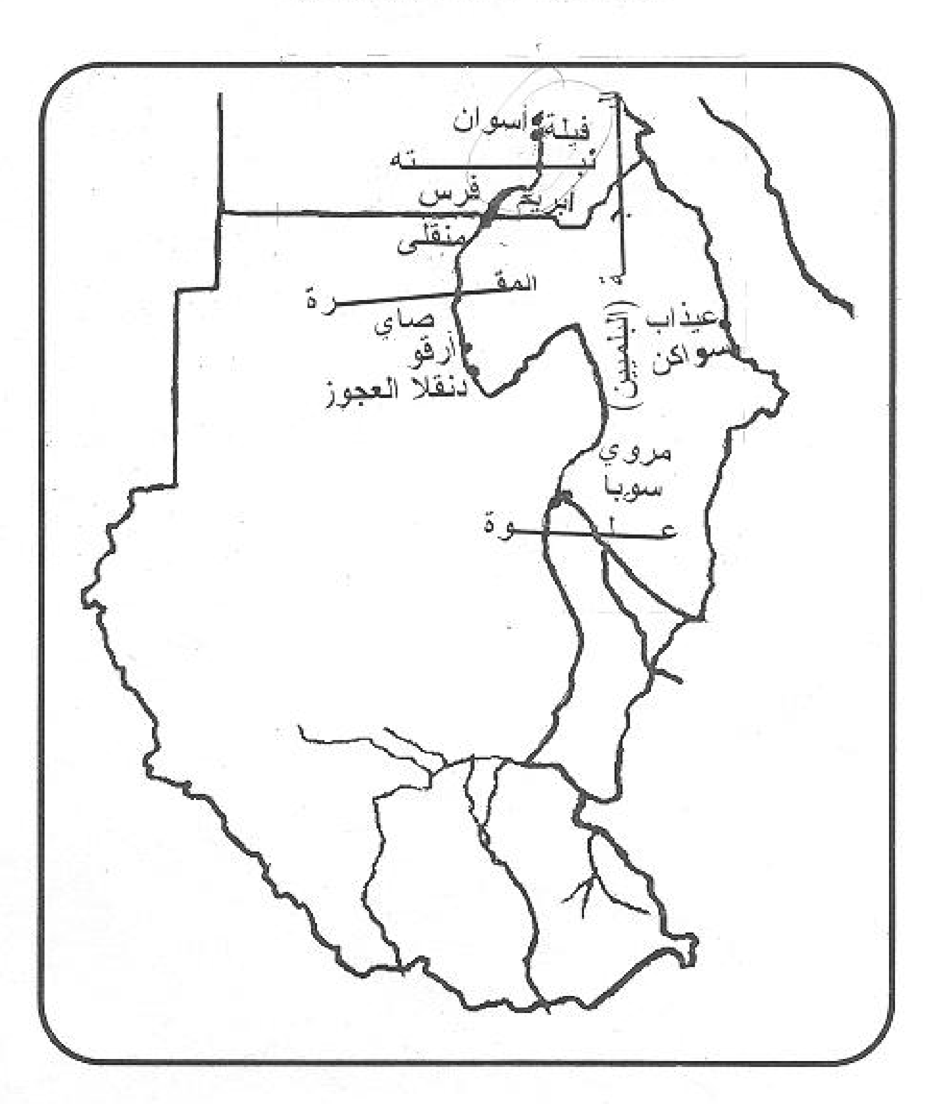
إن هذا الكتاب بمثابة دليل ليرى القارئ من صفحاته الأحوال التي عاش فيها هؤلاء القدماء الذين اندثروا في التراب، ونحن على دربهم سائرون. كما أنه يساعد في تصور أعمالهم وأنشطتهم وعقلانيتهم، الشيء الذي يساعد في إدراك معاني التحف المحفوظة لدى المتحف.

إني أرى بعثاً لتاريخ عصور السودان المختلفة، وفي هذا المجال فإننا نرحب بكتاب المؤرخ الأستاذ/ عبد المحمود أبو شامة الذي يتطوف بعصور خلت، ويتطلع إليها بعين باحثة ثاقبة نافذة، وينقل إلينا رؤيته التي ربما لم يلاحظها كتاب سبقوه.

إني أتمنى أن يطلع على هذا الكتاب النابهون من القراء ليجــدوا فيه العلم الكثيف والاهتمام الذي أولاه الكاتب لبحثه.

الأب/ جيوفاني فانتيني
أمدرمان، أبريل ٢٠٠١م

دول النوبة الثلاث وأرض البجه



مطالع التاريخ الميلادي وجد بالسودان ثلاث ممالك هي: نبتة وتقع بين الشلال الأول (أسوان) والشلال الثاني (حلفا) وعاصمتها (فرس)، ثم مملكة المقرة وتقع بين الشلال الثاني والخامس (بالقرب من بربر) وعاصمتها دنقلا العجوز، وأخيرا مملكة علوه وتقع بين الشلال الخامس والجزيرة المروية حاليا، بل الجزيرة الحالية اسمها التاريخي هو جزيرة علوه. هذه المملكة عاصمتها سوبا بالقرب من الخرطوم.

إن تلك الممالك امتد تاثيرها إلى مناطق فاقت المناطق التي نشأت بها. فمملكة نبتة كان تأثيرها كبيرا على مناطق الصحراء الغربية، الشيء الذي شمل بعض الواحات في الغرب وشمل في الصحراء الشرقية حتى ميناء (عيذاب) بالبحر الأحمر وسواكن.

مملكة المقرة تأثيرها وصل حتى كردفان ودارفور وقبائل القرعان والزغاوة.

وأخيرا مملكة علوه وتأثيرها كان يشمل حتى تلال أثيوبيا.

مقومات بقاء تلك الدويلات:

الأمطار في مناطق الدويلات الثلاث كانت تختلف عن أمطار اليوم وحتى وقت قريب. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الأمطار في الجزء الشمالي من السودان - مناطق أبي حمد - كافية لنمو العشب بكميات كبيرة كما ذكر شاهد عيان هو محمد طلعت في كتابه (غرائب الزمان). أما صمويل بيكر ففي عام ١٨٦٣م اصطاد الأسود مع قبائل الحمران على نهر عطبرة عندما زار تلك المنطقة مع (فلورنس) الفتاة التي تزوجها بعد رجوعه إلى بريطانيا.

كل الحفريات التي جرت في مناطق تلك الممالك أثبتت وجود الرعي والزراعة بكميات وافرة. كل ذلك لا غرابة فيه، فالأمطار ونهر النيل العظيم كفيلان بتقويم الإنتاجين.

بالإضافة إلى ذلك فقد استطاعت دول النوبة هذه - كما قال المسعودي في (مروج الذهب) - من زراعة النخيل والكروم والذرة والموز والحنطة والشعير والبقول.

وبنفس القدر استطاعت منطقة كبوشية من صهر الحديد وصناعة أسلحة حروب ذلك الزمان مع إنتاج الدرق من جلود فرس البحر.

إن كثيرا من المنتجات الزراعية والحيوانية كانت تصدر إلى مصر كما صدرت منتجات الحديد إلى مصر وغيرها من الدول المجاورة.

ديانة المنطقة:

عبد النوبة آلهة متعددة، ولكن ازيس - إله الخصب - كان أكثرهم نفوذا، حيث بنى له الملوك معابد في جزيرة فيله، حتى أصبحت الجزيرة جزيرة مقدسة يأتي إليها الحجاج من مصر ومن ممالك النوبة ومن قبائل البلميين (البجه).

الذي لا شك فيه أن دين موسى عليه السلام كان قريبا من مملكة نبته بأسوان حيث سكنت جالية يهودية كبيرة في جزيرة (الفنتينه) المقابلة لأسوان، ومارست التجارة بين مصر ونبته. رغم ذلك لم يسمع بيهودية تسربت إلى المنطقة ما عدا قصة الخصي القائم على خزائن الكنداكه (الملكة الأم بكبوشية، وكانت تسمى ملكة الحبش)، والذي تعلم اليهودية كما قال عنه الإنجيل (سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن من ٢٦ إلى

٣٩) إن الإنجيل قال عنه، إنه كان يقرأ أشعيا مع فيلبس ثم بشره الأخير وعمده مسيحيا.

المسيحية بمصر:

عندما دخلت المسيحية إلى مصر في القرن الأول، وجدت أنها ليست بعيدة عن معتقدات فراعنة مصر في التثليث (أوزريس، إيزيس وحورس)، فقبلوها سريعا وتبلورت حتى صارت جامعة مكتبة الإسكندرية كما قال دكتور ميلاد حنا في كتابه (نعم أقباط ولكن مصريون) **صفحة** ٤٥ مصدر الفكر المسيحي: إنها في الحقيقة كانت مركز الحوار الفكري الذي ظهر في مجمع (نيقيه) عام ٣٢٥م، حيث تبعت مصر فلسفة مطران أنطاكيا (يعقوب) الذي رأى أن المسيح له طبيعة واحدة، فأسموهم بعد ذلك بالأرثوذكس – أي السلفيين.

ولعل انتشار المسيحية بمصر قد ساعد عليه توجهها **كحركة ثورية** ضد الحكم الروماني الوثني. وفي عهد (ديوقليديانوس) بين **عامي (٢٤٥ – ٣١٣)** أرسل الرومان حملة تأديبية للثائرين بمصر. ومن مذابحه اتخذ الأقباط يوم ٢٩ أغسطس ٢٨٤م بداية لتقويمهم القبطي الذي استمر إلى يومنا هذا.

هذا العامل الوطني الثوري جعل المسيحية في مصر تنطلق بسرعة فائقة وتتخذ لها جذورا في كل الدولة. وبالطبع فإن أقرب المتأثرين بها من الجيران سيكون ممالك النوبة.

طبقة النساك:

عمليات الاضطهاد بمصر للمسيحيين بواسطة الرومان قادت إلى

تشتت المسيحيين إلى المناطق البعيدة من قبضة الحكم الروماني. ونتيجة لذلك تكونت بمصر طبقة النساك الذين ضربوا في الصحراء وعاشوا معزولين من المناطق النيلية بمصر. والطبيعي أن يهربوا إلى بلاد النوبة، ولكن لم يظهر لهم وجود قوي أو أثر تاريخي عميق رغم أن الحفريات أظهرت وجود بعض صلبان بقبور بعض النوبة الذين عاشوا بين عامي ٤٠٠ – ٥٠٠ ميلادية. والذي لا شك فيه أن الأسقف (تيودروس) حول معبداً فرعونياً بفيله إلى كنيسة باسم القديس اسطفانوس في عام ٥٢٧ ميلادية.

المسيحية بنبته والمقره:

مناقشات اليعقوبيين التي بدأت بمؤتمر (نيقيه) تبعها مؤتمر فلسفي مناوئ له عقد في (خليقدون) في عام ٤٥١. هذا المؤتمر قاد إلى انشقاق الدين المسيحي بالإمبراطورية الرومية – أي البيزنطية – ووقف موقفاً مناوئاً لليعقوبيين الذين يرون أن المسيح له طبيعة واحدة. وبذلك أصبحت مصر مؤيدة لمبادئ أسقف أنطاكيا يعقوب ومسيحيو القسطنطينية واليونان وما جاورها مؤيدين للمجمع المسكوني الذي عقد بخليقدون. أصبح من الطبيعي أن يقود هذا الخلاف الفلسفي الديني إلى منافسة في نشر الديانة المسيحية بشقيها.

في فيله المقدسة استطاع القائد الروماني (نرسيس) اعتقال كهنة معبد (ازيس) بعد أن طرد الملك (سلكو) وأكثر المؤيدين لديانته وهم من قبائل البجه.

الملك (يوستانيوس) المؤيد لمجمع خليقدون أرسل كهاناً من مصر إلى مملكة نبته لنشر ديانته فيها، ولكن زوجته الملكة (تيودورا) التي نشأت

وترعرعت بمصر وأيدت اليعقوبيين، أسرعت بإرسال وفود من مصر في عام ٥٤٣م إلى مملكة نبته بقيادة القس (يوليانوس) لكي يسبقوا وفود زوجها وينشروا مسيحية اليعقوبيين بينهم.

نجح مخطط الملكة واستقبلت نبته كهان يعقوب بحفاوة وطردت كهان الإمبراطور (يوسنانيوس) عندما قدموا. ولكن الأخيرين لم يرجعوا بل تقدموا إلى مملكة المقره فنشروا مسيحيتهم بها.

وعلى ما يبدو إن المسيحية في بداية عهدها بمملكة نبته والمقره اتخذت شكلاً سياسياً، فقد استطاعت المجموعات المتناحرة في المنطقة من استغلالها لكسب التأييد العسكري. إننا نجد أن قبائل القرعان التي كانت تخضع لسلطة دولة المقره، قد ذهب زعماؤها إلى الإمبراطور في القسطنطينية في عام ٥٦٨ طالبين منه تعلم الديانة المسيحية حسب معتقده. وفي عام ٥٧٣ وصل وفد من مملكة المقره حاملاً للإمبراطور الهدايا وطالباً منه عقد معاهدة معه.

المسيحية بعلوه:

نفس الدوافع السياسية قادت الملك (أرفيولا) ملك علوه إلى إرسال وفد إلى ملك نبته طالباً منه إرسال الأسقف (لونجينوس) ليلقن شعبه المسيحية. وقد استطاع ملك نبته أن يقنع الأسقف الذي كان يسكن الإسكندرية من التوجه إلى علوه عن طريق تلال البحر الأحمر نظراً للعداء الذي كان بينه وبين مملكة المقره.

استطاع الأسقف (لونجينوس) من تلقين البلاط والأعيان والشعب في علوه معتقدات اليعقوبيين، وبالتالي أصبحت كنيسة علوه تابعة للبطريكية القبطية الأرثوذكسية بالإسكندرية. واستطاع أيضاً هذا الأسقف أن يقضي

على حركة مسيحية صغيرة وجدها بعلوه وكان مبشروها من المسيحيين الحبش. وقد وصف هذه المجموعة بأنها حركة خيالية اعتقدت أن جسم المسيح منزه عن الأوجاع والألام.

التنظيم الديني في الممالك النوبية:

الذي لا شك فيه أن المدة التي بقيتها المسيحية في الممالك الثلاث قد أكسبتها جذوراً وتنظيمات ثابتة. فقد نشأت كراسي أسقفية في كلابشه وأبريم وفرس وقورته بمملكة نبته. بمملكة المقره كانت تلك الكراسي بدنقلا العجوز وأبي حمد (شنقير)، وهناك ادعاء بوجود كرسيين آخرين بدار المحس. أما بمملكة علوه فإن الكرسي الوحيد كان بالعاصمة سوبا.

بطريرك الأقباط في الإسكندرية كان يعين أساقفة هذه الكراسي في نبته وعلوه. أما بطريرك الروم بالإسكندرية أيضاً فقد كان يعين أساقفة المقره.

إن للربع الأخير من القرن السادس الميلادي الذي شهد بداية تحول المعابد الفرعونية بنبته إلى معابد مسيحية لم يكن بعيداً عن غزو عمرو بن العاص إلى مصر في عام ٦٣٨ ميلادية. أي أن الفترة التي كان يمكن أن يحدث فيها تواصل بين النوبة ومصر المسيحية ومن خلفها بيزنطة (دولة الروم) لم تدم أكثر من نصف قرن.

إن انقطاع هذا الحبل السري بين مسيحية النوبة الناشئة ومصدر إشعاعها اليوناني قد أثر كثيراً في مستقبل المسيحية بالسودان. إن المسيحية بممالك النوبة لم تختنق مباشرة بالانقلاب الديني الذي حدث بمصر نتيجة الغزو الإسلامي، إلا أن تنظيمها الناشئ فقد عناصر أساسية وحيوية لتطوره.

عمرو بن العاص والنوبة:

من الطبيعي أن يستمر عمرو بن العاص – بعد فتحه مصر – في تأمين حدود مصر الجنوبية من تحرشات النوبة والبجه المستمرة على الأرياف المصرية، لذلك أرسل أخاه لأمه عقبة بن نافع الفهري في عام ٦٤١ ميلادية لاحتلال بلاد النوبة.

رماة الحدق:

دخلت القوات العربية إلى تبته ناهبة لقراها وتجمعاتها ولكنها بعد تقدم يسير وجدت أنها تعاني من مشقات مختلفة نتيجة عوامل عدة:

أولاً: عدم وجود تجمعات ضخمة في مكان واحد لخوض معارك حاسمة؛ فالقرى الكبيرة كانت صغيرة بالمقاييس المصرية أو مقاييس القبائل العربية. إن هذه القرى التي وجدوها كانت مثل دندق وأبريم وجبل أده وقسطل وغيرها من الناحية الشرقية للنيل، وديود وتلمس (كلابشه) وقورته وأبي سمبل وقرس وغيرها من الناحية الغربية للنيل، كانت متباعدة ومجموعاتها صغيرة وسهلة الحركة وتستطيع عبور النيل ببساطة شديدة بزوارقها الخفيفة. وهذا ما فقده العرب في تكتيكهم الحربي تماما.

ثانيا: هذه المجموعات لم يكن من السهل تجاوزها؛ لأنها تعمل على قطع الإمدادات من الخلف، في الزمن الذي كانت فيه أرضهم قاحلة لا تسمح بإمداد جيوش ضخمة غازية.

ثالثا: كان الفارق في التدريب العربي والنوبي – وخصوصا في مجال النبال النوبية الطويلة (طولها متران) – كبيراً جداً. إن النبال التي استعملها النوبة في صيدهم وحروبهم أتقنوا صناعتها واستعمالها. إن

العرب قد برعوا في استعمال السيوف في معاركهم، ولكن رغم استعمال العرب للنبال في حروب متعددة حتى ذلك الوقت ولكن النبال التي وجدوها بأرض النوبة كانت من نوع أكثر إتقانا وأكثر طولا وأرق نصالا. سرعة النبال ودقة إنجازها جعلت السيف العربي قليل الفائدة. ولسوء حظ العرب فإن النوبة كانوا يرون أن العيون هي مكامن الضعف في المقاتل، فتدربوا على رميها بدقة فأسماهم العرب (رماة الحدق).

معارك العرب والنوبة:

يتفق كل المؤرخين العرب مع الطبري (تاريخ الرسل والملوك، مطبعة ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١) على أن أول حملة وجهها العرب إلى أرض نبته - النوبة - كانت في عام ٦٤١ ميلادية بقيادة عقبة بن نافع الفهري.

هذه الحملة توغلت في أرض نبته ولكنها فشلت في الاستيلاء الفعلي على أي أرض، فقد وجد عقبة أنه يواجه أرضا وأناسا يختلفون عن أهل مصر، وأن ما يقوم به لا يزيد عن كونه حملة تأديبية لا تقود إلى احتلال ولا لنشر دين إسلامي ولا للحصول على أسلاب مادية، بل على العكس كانت تقود إلى أعمال انتقامية. ومن الناحية الأخرى كانت تكاليفها المادية والبشرية ضخمة ومردودها ليس ضعيفا وإنما معدوما.

إن العرب ذهلوا لكثرة ضحاياهم كما شرح ذلك البلاذري ناقلا قول شيخ حميري شهد معركتين مع النوبة من معارك عقبة فقال {وأنا أنقل من كتاب العالم الأب الدكتور فانتيني "تاريخ المسيحية" صفحة ٦٤}: (شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب ٦٣٤-٦٤٤م فلم أر قوما أشد بأسا منهم ولقد سمعت أحدا يقول للمسلم أين تحب ان أضع سهمي منك

فربما عبث الفتى منا فقال: في مكان كذا، فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبل فما يكاد يرى من نبلهم على الأرض شيء، فخرجوا إلينا ذات يوم فصادفونا ونحن نريد أن نجري حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم، ورمونا حتى ذهبت الأعين فعدت مائة وخمسون عينا مفقوءة).

الحرب في ولاية الخليفة عثمان بن عفان:

عندما ولي الخلافة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعين عوضا عنه سعد بن أبي السرح في عام ٦٤٦ ميلادية. استمرت الحرب سجالاً بين العرب والنوبة في شكل حملات سنوية. في عام ٦٥٢ أرسل سعد بن أبي السرح أكبر حملة إلى أرض النوبة لقيت هزيمة منكرة، وهي المعركة التي فقئت فيها عين القائد معاوية بن خديج، فأسمى العرب النوبة يومها (رماة الحدق).

بعد المعركة تيقن سعد بن أبي السرح أنه يقود في حروب خاسرة، عالية التكاليف المادية والبشرية وضعيفة المردود. حينها قرر مهادنة النوبة، فتوصل معهم إلى اتفاق هدنة لا جزية فيه. هذا الاتفاق اتخذ شكلا محددا ودقيقاً للتعامل بين العرب ودويلات النوبة باسم (البقط) وهي الكلمة اليونانية (باكت) وتعني الاتفاق.

أكبر حملات النوبة:

الذي اتفق عليه المؤرخون أن بين الحملات التي جردها المسلمون بمصر لغزو النوبة ثلاث حملات كانت كبيرة الأعداد لاحتلال أرض النوبة احتلالا فعليا.

الحملة الأولى هي التي قادها عقبة بن نافع الفهري في عــــام ٦٤١، عندما أرسله عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب. هذه الحملــــة وصلت حتى الشلال الثاني ولقيت هزائم فادحة لم تتوقعها.

الحملة الثانية الضخمة كانت عام ٦٤٦ في ولاية سعد بن أبي السرح (عزل عمرو بن العاص في عام ٦٤٥م) في خلافة عثمان بن عفان، وهذه الحملة انتهت باتفاقية تنص على استيراد عبيد من أرض النوبة في مقــابل البضائع التي يحتاجون إليها من مصر ولا ينتجونها بالنوبة. هذه الاتفاقية لم تكن دقيقة أو مفصلة فحاول العرب تفسيرها لصالحهم فألغاها النوبة.

الحملة الثالثة حدثت في عام ٦٥٢ عندما سار جيش عربــــي ضخـــم بقيادة سعد بن أبي السرح ووصل إلى مشارف دنقلا حيث لقيتــــه قــوات وصل عددها إلى مائة ألف مقاتل نوبي جمعوا من نبته والمقره وعلـــوه. ضرب العرب دنقلا القوية التحصينات بالمنجنيق الذي لم يعرفـــه النوبـــة فتهدمت بعض منازلهم، ولكن ذلك لم يخفهم وأصابوا العــــرب إصابـــات هدت قواهم العسكرية وأدت إلى اتفاقية البقط الثانية التي دامت أكثر مـــن ستمائة عام.

اتفاقية البقط:

١-نصت الاتفاقية على تعريف أرض النوبة بأنها الأرض التي تقع بين أسوان ومملكة علوه.

٢-أعطت الاتفاقية الأمان العربي للنوبة في أنهم لن يغيروا عليهم.

٣-أعطت الاتفاقية الجانبين الحق في عبور أرض الجانب الثـــاني فـــي أمان وسلام.

٤-على كل جانب رد الهاربين من الجانب الثاني.

٥-لا يتعرض النوبة للمسلمين في دينهم أو في مسجدهم الذي بنوه في دنقلا، وعلى النوبة توفير الأمان لقاصديه ومصلية ونظافته وإنارته ليلاً.

٦-عدم إبقاء أي عدو للعرب بأرض النوبة وعدم تقديم أي مساعدة له للهجوم على مصر.

٧-حددت الاتفاقية عملية مقايضة بين الجانبين، يقدم النوبة للعرب ثلاثمائة وستين عبداً من الرجال والنساء لا عيب فيهم وليسوا من العجائز أو الأطفال، وقيل أيضا أن أربعين عبداً أضيفوا إلى العدد السابق يقدمون إلى والي مصر.

في مقابل ذلك على العرب أن يقدموا إلى النوبة ما يلي:

أ- ألف أردب قمح وللرسل ثلاثمائة أردب من الشعير.

ب- ألف قنينة من الخمر وللرسل ثلاثمائة.

ج- فرسين من خيول الأمارة.

د- مائة ثوب من القطن العادي.

ه- أربعة أثواب (قباطي) للملك، ولرسله ثلاثة.

و- ثمانية أثواب بقطرية.

ز- خمسة أثواب من المعلمة.

ح- جبة مخمل للملك.

ط- عشرة قمصان بقطرية.

ي- عشرة اثواب (أحاصي) من القطن الخشن.

ومن الملاحظ أن عطاء الخمر قد يكـــون مســـتهجنا بالنســـبة إلـــى المسلمين، ورغم استنكار الخليفة عبد العزيز بن مروان له، إلا أنه استمر يقدم إلى النوبة. لم يجد ولاة مصر صعوبة في الحصول على الخمر لأن أقباط مصر الذين فضلوا الجزية على الإسلام كانوا ينتجونها ومن الســهل أن يقوموا بارسالها إلى إخوتهم المسيحيين بالنوبة.

بالإضافة إلى استهجان الخمر فان بعض المؤرخين يشكون في وجود مسجد في ذلك الحين بدنقلا، وكان موضوع المسجد قد ذكره المقريـــزي في كتاب (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - ١٩٢٧ القاهرة، ٣٠ مجلدات).

شروط إلغاء البقط:

الشروط الملغية للعقد هي:

١-إذا أوى النوبة عبداً هارباً من مسلم.

٢-إذا قتل النوبة مسلماً.

٣-إذا هدم النوبة مسجداً بناه المسلمون.

٤-إذا امتنع النوبة عن المقايضة بارسال العبيد المتفق عليهم.

اتحاد مملكتي الشمال:

سعى بطريرك الأقباط اسحق (٦٨٦-٦٨٩) إلى جمع دول النوبة في

دولة واحدة تلقى تأييدا سياسياً من أقباط مصر. وقيل إنه كان يبعث بالرسائل لهذه الدويلات حاثا لها على الاتحاد. ورغم نجاحه في زرع الفكرة، إلا أن حكام مصر من العرب تنبهوا إلى خطورة هذا الاتحاد من الناحية العسكرية، فمنعوا البطريرك من الاتصال بدول النوبة. ولكن على ما يبدو أن الفكرة وجدت قبولا من دولتي نبته والمقره رغم الاختلاف الديني بين الدولتين، وكان يقود في الماضي إلى تحرشات. أما بالنسبة إلى أقباط مصر فإنهم لم يساندوا هذا الاتحاد عسكريا أو سياسياً وإنما بقيت عواطفهم الدينية فقط مع إخوتهم في الجنوب.

إن فكرة الاتحاد لم تكتسب شكلا عملياً إلا في بداية القرن الثامن الميلادي عندما أصبح الملك (مرقريوس ٦٩٧-٧٤٤) ملك دنقلا، ملكا على المقره ونبته، وأصبح على دولة نبته وال يسمى الأبرخص ومقره في فرس. ملك الدولتين تم الاتفاق على أن يكون مقره مدينة دنقلا.

من الأشياء التي ساعدت على هذا الاتحاد طرد العرب لبطريرك الروم - الممثل للكنيسة اليونانية بالإسكندرية - بين عامي ٦٣٦ - ٧٣١ ميلادية. فقد أثر طرده في تخفيف حدة الخلاف الديني بين المملكتين. فبطرد البطريرك الروماني من الإسكندرية، انتقلت عملية تعيين الكراسي الأسقفية بالمملكتين إلى بطريرك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بالإسكندرية.

من الطبيعي أن يكون أول المنشئين للدول أكثرهم عملا. ففي عهد الملك مرقريوس (٦٩٧ - ٧٤٤) تم توحيد النوبة على قواعد من العدل والتقسيم الإداري المعقول. كما في عهده أصبحت جميع المقرة المتحدة تابعة للكنيسة القبطية المصرية، وبالتالي انتهجوا نفس دين مملكة علوه فأصبحت جميع أرض النوبة على دين واحد. ورغم كل هذا التدين فالملك

كان يحكم بحجة أن تاج الملك قد نزل عليه من السماء، وأنه حاكم بأمر الله، ورعاياه عبيد له يعملون في الأرض التي لا يملكونها بل يملكها الملك. وقد ظهر ذلك جلياً في النزاع الذي حدث بالأراضي التي امتلكها بعض النوبة بأسوان. فعندما باع هؤلاء النوبة تلك الأرض للمسلمين، احتج الملك بأنهم لا يملكون حق بيعها وإنما العمل فيها فقط.

هذا وقد فشل القضاة المسلمون بأسوان عندما وصلت القضية إلى الخلافة في دمشق ووجهتهم الأخيرة بالنظر فيها. حكم القضاة بجواز البيع لأن القانون الإسلامي الذي تخضع له أسوان لا يقر الإقطاع المبني على مالك للأرض بمجرد أنه ملك، ومن يملك الأرض فعلاً ويزرعها عبد ليس له حق التصرف فيها.

ملك دنقلا الناسك:

الملك زكريا الذي كان من المفترض أن يخلف والده، كان ناسكا. فعندما خلف زكريا والده مرقوريوس في عام ٧٤٤ رفض أن يتولى الحكم بنفسه، وجعل يعين الملوك الذي يحكمون نيابة عنه. عين أولاً الملك سيمون الذي سار على رسيم الملك السابق الصالح ولكنه مات. فعين زكريا ملكاً آخر من المحاربين بالقصر يدعى إبراهام، فدخل في نزاعات مع رجال الدين وانتهى به المطاف منفياً في جزيرة بالنيل. فعين بعد ذلك زكريا ملكا ثالثا يدعى مركوس قتله بعد ستة أشهر أنصار إبراهام داخل الكنيسة وهو يصلي. وأخيرا عين زكريا ملكا رابعا يدعى قرياقوس. كل ذلك في أربع سنوات تقريبا فقط.

حملة على والي مصر:

ضعفت الخلافة الأموية وقاربت التلاشي، وعلى ما يبدو أن والي مصر عبد الملك شعر بضعف قوته فأراد التخلص من أي مقاومة قد يقدم عليها أقباط مصر؛ لذا قام باعتقال رأس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المصرية الذي مقره الإسكندرية. والجدير بالذكر أن هذا البطريرك هو الذي يعين مطران الكنيسة النوبية، الذي بدوره يعين الأساقفة المحليين وبقية كهنته. لذا أرسل ملك النوبة حاكم المناطق الحدودية (الأبرخص) لكي يطلب من والي مصر إطلاق سراح البطريرك. كل الذي فعله الوالي العربي هو أن ألقى بالأبرخص أيضاً في السجن.

فتقدم الملك النوبي (قرياقوس) بجيش قوامه مائة ألف فارس ومائة ألف هجان ودخل صعيد مصر سابياً للمسلمين، وناهباً لثرواتهم إلى أن وصل إلى بركة الحبش.

كان على والي مصر أن يحارب الملك النوبي، ولكن ضعف موقفه السياسي والعسكري جعلاه يعقد اتفاقاً مع الأبرخص المسجون عنده، بأن يرجع ملك النوبة وقواته في مقابل إطلاق سراح البطريرك. وافق الأبرخص وفيما بعد الملك على الرجوع إلى أرضه بدنقلا. تبع هذه الحملة توقف الملك النوبي عن تقديم البقط لمدة عشر سنوات.

بعد الحملة بعامين تم الانقلاب الذي أبدل الحكم الأموي في دمشق بحكم عباسي في بغداد في عام ٧٥٠ ميلادية.

طالب والي مصر العباسي موسى بن كعب في عام ٧٥٨ ميلادية لأول مرة من الملك النوبي معاودة تقديم البقط، فوافق الملك.

المسلمون بأرض النوبة:

على ما يبدو أن القوة التي شعر بها المسلمون بعد قيام الدولة العباسية وزوال الضعف الذي منيت به نهاية الحكم الأموي، شجعت المسلمين على الدخول إلى أرض النوبة بأعداد أوفر، لزراعة الأراضي التي اشتروها من النوبة وعجز ملك النوبة من استردادها بحجة أن من باعوها ليسوا إلا عبيدا يعملون في أرضه. كما تدفقت أعداد هائلة أخرى من الأمويين الفارين من البطش العباسي، وغيرهم من المستثمرين المنقبين عن الذهب.

هذه الهجرة مكنت الخليفة في بغداد من اعتبار الأرض التي تقع بين جبال البحر الأحمر وأسوان تابعة له. ولكي يأمن شر البجه ويقبلوا بهذا الضم النظري، قدم لهم حق المخافرة، وهو خمس الذهب المستخرج. ولكن رغم هذا لم تتوقف غزوات البجه لجنوب مصر بغرض النهب.

الخليفة المأمون الذي دام حكمه عشرين عاما ابتداء من عام ٨١٣ ميلادية، أمر واليه على مصر (عبد الله بن الجهم) أن يحارب البجه. قاتلهم الوالي وهزمهم وفرض عليهم بقطا أهم نقاطه حماية مسجد المسلمين في هجر ومسجدهم في سنكات. ولكن هذا الاتفاق لم يدم طويلا.

حملة العباسيين الثانية على البجه:

لم يدم الاتفاق الأول بين البجه ووالي مصر طويلا، فقد زاد عدد المسلمين المنقبين عن الذهب، فقام البجه بطردهم وسب دينهم وتحطيم مسجديهم في هجر وسنكات.

أرسل الخليفة جعفر في عام ٨٥١ ميلادية أحد مواليه - ويدعى

محمد عبد الله القمي - على رأس جيش كونه بمساعدة والي مصر. الجيش يتكون من الفرسان والهجانة برا عن طريق أسوان، وتساعده سفن إمداد من ميناء عيذاب بالبحر الأحمر.

استطاع ملك البجه - علي بابا - من مراوغة الجيش الإسلامي مراوغة طويلة، وذلك بالانسحاب كلما اقترب العرب، ولكن في النهاية تمكن العرب من هزيمته. وقيل إن علي بابا تم القبض عليه مع الملك قرقي - ملك دنقلا - الذي أتى لمساعدته. وقيل إنهما أخذا إلى بغداد فعفا عنهما الخليفة

الجدير بالذكر أن الملك قرقي كان أول نوبي يدخل بلاد العرب في مهمة رسمية ويصل إلى بغداد. فيومها طالب الخليفة المعتصم في عام ٨٣٣ ببقط أربع عسرة سنة متأخرة من ملك دنقلا. ونظرا لصعوبة المطلب أرسل ملك النوبة ابنه قرقي إلى الخليفة عن طريق مصر. قابل قرقي الخليفة في بغداد وتوصلا إلى اتفاق بالتنازل عن البقط السابق، وتخفيض البقط اللاحق بأن يكون كل ثلاث سنوات بعد أن كان سنويا. وقد لقي قرقي حينها حفاوة كبيرة من الخليفة.

ازدياد المنقبين:

ازداد بعد تلك المعركة المنقبون عن الذهب من العرب. ولكن أكبر عدد منهم كان تابعا لقاض يدعى عبد الرحمن عبد الحميد العمري الذي كانت قافلة إمداداته تصل إلى ستين ألف حمار.

رغم أن العمري عاش بين البجه دون مناكفة أو مناوشة، إلا أن ملك النوبة شعر بخطورة تكاثر رجاله فأرسل إليه ابنه الأول في قوات انهزمت، تلاها بقوات أخرى يقودها ابن أخيه (نيوتي) ولكن الأخير انضم

إلى العمري. أخيرا أرسل إليه ابنه زكريا، الذي بعد مؤامـــرات متعـــددة استطاع هزيمته. هرب العمري وتفرقت قواته فقتله بعض جنوده وهو في طريقه إلى مصر. حمل القتلة رأس العمري إلى الأمير أحمد بن طولـــون معتقدين أنه سيسر لذلك، ولكنه قتلهم.

الأعاجم في حكم مصر:

ان وصول ابن طولون إلى الحكم في مصر كان نتاجا لضعف الدولة العباسية، فبدخول الأعاجم إلى سدة الحكـــم والجيـــش، قويـــت شـــوكتهم وضعفت العناصر العربية في حكم الدولة الإسلامية.

في عهد ابن طولون بمصر أصبح حكامها من العجم الأتراك والنوبة المرتزقة والعبيد. وفي عهده وصل النوبة في جيشه أربعين ألف مقـــاتل، يقودهم ابنه خمارويه. وبالتالي شعر النوبة بالأمان في بلادهم أكثر من أي وقت آخر سابق. ومهما قيل فإن النوبة في جيش مصر دخلوا في نزاعات مع القوات الأخرى التي كانت تهابهم.

ومن جانب النوبة فإن حملاتهم على أرض مصر لم تتوقف. كمـــا أن العداء الذي بدأ يشعر به العرب نحو الأعاجم والموالي بمصـــــر جعلـــهم يبحثون عن مناطق أخرى للهجرة. كان المنفذ الوحيد لديـــهم هـــو أرض النوبة وصحاري السودان. قاد كل هذا إلى حملات من حكام مصر علـــى النوبة، وكان جنودها من النوبة العاملين بمصر والأتراك.

غزا أبو منصور تكين التركي - إبان فترة ولايته الأولى على مصر بين عامي ٩١٠ و ٩١٥ - النوبة، فقابله الأمير زكريا وهزمه على حدود بلاده.

عندما توفي الملك قرقي خلفه ابنه زكريا (الثالث) الذي في عهده احتل النوبة في عام ٩٥١ ميلادية الواحات الغربية وبعض مناطق الصعيد حتى أخميم.

في عام ٩٥٦ ميلادية زحف النوبة على أسوان ودمروا كثيرا منها واستولوا على تجارة أسواقها، مما حمل كافور الإخشيدي والي مصر (٩٤٦-٩٦٨) لحربهم ولكن دون الدخول إلى أرضهم.

هدنة مائة عام مع النوبة:

بعد عودة زكريا الثالث بن قرقي من حربه مع كافور الإخشيدي توفي وتولى الحكم بعده ابنه قرقي (وهو الاسم النوبي لجورج وكان العرب يسمونه جرجه) في عام ٩٦٨ تقريبا. ولكن العام **الذي تلى ذلك** شهد انهيار الحكم في مصر واستيلاء الفاطميين الشيعة **على الحكم فيها.**

إن موقف الفاطميين كان عصيبا بعض الشيء لسببين:

أولا: العداء للأنظمة السنية في العالم العربي والتي كانوا **يفكرون في** الانقضاض عليها وإبدال الحكم بها.

ثانيا: توجسهم من أوربا كان كبيرا. كانوا يتوقعون هجوما عليهم منهم، أو على الأقل أن يوقفوا إمدادهم بالأخشاب التي يريدونها لصناعة سفن أسطولهم.

بعد أن أرسى جوهر الصقلي قواعد حكمه الجديد بمصر، أراد ضمان حدوده الجنوبية، وضمان إمداد مستمر بجنود النوبة، لكي يحلوا محل الأتراك والعرب بالجيش المصري. فأرسل من عاصمته التي خطها - القاهرة - سفيرا يدعى سليم الأسواني لعقد معاهدة مع ملك دنقلا قرقي بن زكريا.

بعد أن عرض السفير سليم على ملك دنقلا الإسلام، وعرض ملـــك دنقلا المسيحية على السفير الفاطمي، توصلا إلى اتفاق يرضي كل طرف فيه بدين الثاني، ويحافظ على السلام بين الدولتين.

استمرت هذه الاتفاقية سارية المفعول بين الجانبين طوال فترة الحكم الفاطمي لمصر والذي استمر قرابة القرنين. وعلى ما يبدو أن رحـــلات سليم الأسواني التالية إلى علوه وأرض البجه كانت لنفس الغرض.

هذا السلام انعكس خيرا على أرض دنقلا، فانتعشت التجـــارة بيــن الدولتين، واستقر المزارعون في زراعة أراضيهم بالقمح والشعير والدخن واللوبيا والنخيل والكروم والزيتون. ونظرا لقلة الأرض فقد زرعوها شتاء ثم سمدوها بالسماد الحيواني والطمي وزرعوها صيفا. استعملوا للحــرث الأبقار، ورفعوا المياه إلى أرضهم بالسواقي.

نسبة إلى الحرص الشديد الذى كانت تتخذه دولة دنقلا في عدم إدخال العرب إليها، ففد فرض الأدر خص مراقبة وتفتيشا دقيقين على كــل مــن يتعدى الحدود المصرية عند مسجد الرديني بعد حصن جزيرة فيله. فبعــد ذلك تبدأ أرض النوبة بقرية تسمى القصر.

التجارة بين الحدود كانت مزدهرة، ويقوم بــها المســلمون والنوبــة ويستعملون عملات نقدية ومقايضة. أما إلى الجنوب فلم يسمح لغير النوبة بالدخول خوفا من الهجرة والتجسس، ولكن التجارة المتبعة كانت مقايضة.

الهجرات العربية:

أصبح جليا أن الطريق السهل لهجرة العرب إلى السودان هي طريق أرض البجه، حيث التنقيب عن الذهب والمعادن وسهولة الدخـــول عــن

طريق الموانئ البحرية والصحراء. كما أن البجه لم يفرضوا قيوداً مشددة على الهجرة. لذلك استقرت في أرض البجه قبائل عربية أهمها ربيعه التي تزاوجت معهم. ومع ربيعه بدأت الثقافة العربية في بذر نباتاتها الأولى في أرض وثنية لا تتبع ديناً سماوياً. بالإضافة إلى ذلك، فإن الوحدة القديمة تحت سلطة ملك واحد مقره هجر قد تلاشت. تفرقت البجه إلى بطون، على كل بطن شيخ. والشيخ نفسه مع قومه يحتكم إلى كاهن يستمد وحيه من شيطان يقرأ عليه حوادث المستقبل.

في مملكة علوه كان الموقف مختلفاً جداً. فهذه المملكة كانت منيعة القوى، واسعة الأرض الصالحة للزراعة، وامتلكت سواقي لرفع المياه إلى مزارعها. هذه الدولة لم تتأثر بشكل مباشر بالحروب مع الجارة الطامعة مصر. سمح ملوك سوبا للمسلمين بالقدوم إلى مملكتهم للاستفسار عن مناسيب النيل، أو سكان المملكة أو الزيارة. لذلك تمكن الرحالة ابن حوقل وسفير الفاطميين سليم الأسواني من القيام بزيارات وخصوصاً للعاصمة سوبا ورأوا بناياتها وكنائسها المتعددة، وثراء أرضها، وطاعة سكانها لملوكهم. كما وجدوا أيضاً في ذلك الوقت – النصف الثاني من القرن العاشر – حيا للمسلمين. ولكن سوبا القوية البعيدة عن النفوذ الإسلامي لم تمكن واحداً من المسلمين من تكوين جيش أو حتى الزواج بأهلها المسيحيين، الذين بلغت كنائسهم في جميع المملكة أربعمائة كنيسة. إن ابن حوقل استطاع حضور اعتلاء الملك اسطابنوس بن يركي عرش علوه عندما توفي خاله (أوسابيوس كرجوه بن جوتي) الذي والدته أخت ملك دنقلا. من هذا يصبح جليا أن أبناء الأخت – دون الأبناء – يرثون الملك.

الجزء الشمالي من هذه المملكة – أي الأبواب - حكمه والي خاضع لسلطة الملك. وقد تعاون هذا الوالي مع الفاطميين على إرجاع الهاربين

من سلطتهم. وهذا قاد إلى هدوء سياسي في المنطقة، الشيء الذي وفـــر حرية كبيرة لتجارتهم مع الخارج التي تخصصوا فيها.

تدهور العلاقة بين النوبة ومصر:

اشتداد الحملات الصليبية على مصر قادت نور الدين الزنكي حـــاكم سوريا، إلى إرسال جيش كردي لمساعدة مصر. صلاح الديـــن الأيوبـــي الذي كان أحد كبار ضباط هذا الجيش عينه الملك الفاطمي – العاضد بالله – وزيرا له في عام ١١٦٩ ميلادية. ولعل تطلع صلاح الدين للاســـتيلاء على الحكم قاده إلى نزاع مع مؤتمن الخلافة المسئول عن القصر الملكي، وكان نوبيا. أدى ذلك الخلاف إلى قتل مؤتمن الخلافة في منتجعه في قرية الخرقانية في السابع من يوليو عام ١١٧٣ ميلادية.

هذه الحادثة قادت إلى ثورة النوبة بجيش الملك. وقد استطاعت قوات صلاح الدين من القضاء عليها بواسطة قوات أخيه فخر الدولـــة تـــوران شاه، الذي جاء لمساعدة أخيه صلاح الدين. الملك الفاطمي الشيعي الـــذي كان النوبة يدافعون عنه – لما رأى انهزامهم – انضم إلى صلاح الديـــن الأيوبي السني ضد النوبة. ولكن الملك مات سريعا، أو دبر قتله واستولى صلاح الدين على الحكم وأصبح سلطانا على مصر.

أول معركة بين الأيوبيين والنوبة:

تقدم النوبة من دنقلا لمساندة الملك الفاطمي ووصلوا إلى أسوان فـــي أعداد كبيرة استطاعت احتلالها، واحتلال المنطقة وقراها، فهرب حاكمـــها كنز الدولة إلى القاهرة طالبا مساعدة الملك الأيوبي.

أرسل الملك الأيوبي قوة بقيادة الشجاع البعلبكي وتبعه كنز الدولـــة.

عندما وصل الجيش إلى أسوان وجد أن الجيش النوبـــي اســتولى علـــى الصعيد، فذهب إليه هناك ودارت معركة طاحنة تراجع بعدها الشجاع إلى القاهرة منهزما.

صلاح الدين يرسل أخاه إلى النوبة:

أرسل صلاح الدين هذه المرة أخاه توران شاه في أواخر عام ١١٧٣ ميلادية، على رأس جيش كبير من الأتراك، تبعتهم قافلة نيليـــة ضخمـــة تحمل الرجال والأغذية.

عندما وصل الجيش إلى أبريم بأرض النوبة، دارت حـــرب بينـــهما استمرت ثلاثة أيام، انتصر فيها توران شاه على الأبرخص ممثـــل ملـــك النوبة. وقد استطاع توران تغنيم أبريم وخلص بعـــض الأســـرى الذيـــن قبضهم النوبة من جيش الشجاع البعلبكي المهزوم.

إن هزيمة النوبة التي استطاع توران شاه الوصول إليها بعد معـــارك أيام ثلاثة، كان مردها إلى حداثة الأسلحة التي جاءت بها القوات التركية، في حين أن المقاومة العنيفة التي قابلهم بها النوبة كانت بالنشـــاب الـــذي حاربوا به منذ ألف عام ولم يطوروا غيره.

إن توران شاه بعد احتلاله للمدينة قام بتخريبها، ورفـــع الأذان مـــن سقف كنيسة أبريم.

لم يستطع التقدم أكثر من ذلك، فعين ابراهيم الكردي حاكماً لأبريم مع قوة من الأتراك. بقي هذا الكردي وجيشه يعيش على نهب القـــرى فـــي نواحي دندان وفرس، وقد استطاع النوبة قتله ومجموعة كانت تسبح معـــه بالنيل، فانسحبت بقية قواته إلى القاهرة.

بداية النهاية لمملكة دنقلا:

عاد النوبة إلى أبريم، وقد حاول الملك التصالح مع الأيوبيين ولكنه فشل.

وعلى ما يبدو أن مملكة دنقلا غشيها القدم، وهدتها الحروب، وتسلط عليها التخلف نتيجة التطور الذي حدث للأسلحة وغيرها بالعالم وبأرض مصر. كما انقطع التواصل بينها وبين المسيحية الأوربية وعاشت تفصلها الصحاري الشواسع عن الإشعاعات الحضارية في العالم.

بالإضافة إلى كل ذلك فأرضها فقيرة الإنتاج النباتي والحيواني، هرمت الدولة إلى حد لم تستطع فيه السيطرة على أراضيها الشاسعة مثل دار فور ومناطق الزغاوة وفروعها.

عاشت دنقلا خلال الحكم الفاطمي على تصدير المقاتلين إلى جيوش الشيعة في مصر. وعندما ذهب الشيعة وأتى الأيوبيون انقطع حتى مردود هذه الهجرة.

المماليك يدخلون سواكن:

في عام ١٢٦٠ ميلادية استولى مملوك من العسكر على عرش مصر اسمه الظاهر بيبرس وعين نفسه سلطانا عليها.

في عام ١٢٦٤ أصبح جليا أن والي سواكن يصادر أموال التجار المتوفين بها. أرسل إليه السلطان بيبرس والي قوص علاء الدين الخازندار على رأس قوة لمحاربته. ذهب هذا القائد على أربعين مركبا من ميناء عيذاب إلى سواكن، وهزم واليها عالم الدين الأسبعاني واحتل الميناء.

الملك داؤد يغزو عيذاب وأسوان:

الملك داؤد الأول ملك دنقلا غزا في عام ١٢٧٥ ميلادية ميناء عيذاب واستولى على أموال كثيرة منه، ثم غزا مناطق أسوان ونهب أسواقها وحرق سواقيها.

انتقم السلطان في القاهرة بأن أرسل علاء الدين الخازندار لملاحقة الملك النوبي. لم يلحق الخازندار به ولكنه استطاع قبض واليه وجماعة من قومه وأحضرهم إلى السلطان الذي أمر بنشر جزوعهم بالمنشار.

الظاهر يرسل جيشا لاحتلال النوبة:

في ٢٠ يناير ١٢٧٦ ميلادية تحركت قوات يدعمها العربان للقضاء على الملك داؤد الثاني الذي استولى على الحكم بعد موت والده داؤد الأول، بدلا مما كان معمولا به بأن يتولى الملك ابن الأخت الأمير شكنده.

هرب شكنده إلى مصر، وعاد مع هذا الجيش موعودا من قبل السلطان بتنصيبه ملكا. كان هذا الجيش بقيادة الأمير عز الدين أيبك الأفرم. يساعد هذا الأمير عدد من الأمراء.

عندما دخل هذا الجيش إلى بلاد النوبة - التي بدأ المؤرخون يطلقون عليها بلاد السودان - جعل يقذف السكان بقاذفات اللهب التركية ويقتل كل من يلقاه.

عندما وصل إلى قلعة الدر هزم والي المنطقة التي أسميت بأرض الجبل، واسمه قمر الدولة كشي، وكان ملك النوبة قد عينه واليا بعد أن أعدم الظاهر بيبرس سلفه نشرا.

هرب الوالي قمر الدولة، فقام الجيش بقتل السكان وسبيهم. واستمروا في سبيهم وحرقهم للقرى وقتلهم للسكان. التقوا بملك النوبة داؤد الثاني فهزموه، وقبضوا على أخيه وعلى أمه وأخته.

استطاع الملك الهرب إلى الأبواب مع ولده حيث قبض عليهما والي الأبواب إدوار وأرسلهما إلى السلطان في القاهرة حيث سجنا في قلعة الجبل.

شروط تنصيب شكنده ملكا:

جيش المماليك المنتصر فرض شروطا على اعتلاء شكنده إلى الحكم، أهمها:

١-يرسل شكنده إلى سلطان مصر سنويا أفيالا ثلاثة ومثلها من الزراف، وخمسة فهود إناث ومائة من الخيول القوية، وأربعمائة من الأبقار الحلوب.

٢-أن يقسم ربع الدولة إلى قسمين، قسم للسلطان، والنصف الآخر لاحتياجات مملكة دنقلا والدفاع عنها.

٣-أن يصبح الربع الأول من مملكة النوبة تابعا لمصر، لقربه من أسوان، ويأخذ السلطان منتجاته الزراعية من أقطان وتمر، مع أي ضرائب أخرى كانت مستحقة أو كان السكان يدفعونها سابقا للسلطان.

٤-فرض جزية عليهم لرفضهم الاسلام، مقدارها دينار على كل مسيحي بالغ في كل المملكة كل عام.

٥-أن تصادر جميع ممتلكات الملك داؤد الثاني وأهله وجميع من قتل من

السكان وتورد إلى السلطان بالقاهرة.

٦-لا يترك الملك العربان يستقرون بمملكته، وأن يسلم من يقبض عليه إلى الباب السلطاني.

٧-يعادي الملك كل أعداء السلطان ويوالي من والاه.

٨-يقبل ملك دنقلا أن يكون نائبا عن سلطان القاهرة في بلاده.

قبل الملك المنصب بهذه الشروط وأقسم على التنفيذ والولاء للسلطان. كما أقسم عليها رجال الدولة. هذا وقد حمل السكان على القسم بطاعة الملك شكنده طالما كان مطيعا للسلطان. وأن يرفعوا للملك الأخبار وأن يتصلوا بالسلطان إذا خالف الملك المصلحة والطاعة.

ثم عين خمس عشرة نقطة استراتيجية وضع عليها جنودا لحراستها، واقطع أراضيها لواحد من أهل الملك شكنده.

عاد جيش الأفرم إلى مصر، بعد سبعة عشر يوما قضاها في دنقلا وذلك في ١٢ مايو ١٢٧٦، آخذين معهم أخا الملك داؤد الثاني والأسرى.

ما بعد الهزيمة:

١-بهذا الاتفاق قبل النوبة أن تكون مملكتهم مستعمرة لمصر.

٢-بيع الأسرى النوبة عبيدا بأرخص الأسعار نسبة لكثرة من أسر.

٣-نهبوا جميع ممتلكات البلاد بما فيها ما وجد في الكنائس من نفائس وذهب وفضة. من كنيسة (يسوع) وحدها بدنقلا أخذوا ذهبا قيمته سبعة آلاف دينار، ومن الفضة ما قيمته ثمانية آلاف

دينار. وهذا مال كثير عند تقييمه آنذاك. فمثلاً تمكن مقارنة ذلك بسعر الأسير الذي بيع بثلاثة دراهم كما قال ابن دقماق.

٤-نسبة لكثرة السلب والنهب والضرائب التي فرضوها على السكان، فقد طلب السلطان من وزيره القبطي بهاء الدين بن حنا أن يعين عمالاً لاستلام خراج مملكة دنقلا.

٥-السكان في مملكة دنقلا بدأوا الدخول في الإسلام للتخلص من الجزية التي فرضت عليهم.

٦-فقدت البلاد كل مالها، وكثيراً من أبنائها، فانخفض الإنتاج بجميع أنواعه واضمحلت التجارة والقوة الضاربة لجيش الملك.

اغتيال الملك شكنده:

ملك شكنده أقل من عام واحد، عندما أرسل السلطان الظاهر بيبرس رجلاً نوبياً يدعى سلامة الإسماعيلي لاغتيال الملك النوبي، وقد استطاع سلامة عن طريق آخر من الغدر بالملك وقتله. إن مصر قامت بذلك عندما شعرت أن الملك النوبي قد لا يدوم ولاؤه طويلا.

الملك برك:

في عام ١٢٧٧ ميلادية تم تتويج (برك) وهو ابن أخت الملك المقتول شكنده، ملكا بعده، وذلك إبان عهد السلطان قلاوون. ولكن قلاوون سرعان ما قرر قتل الملك برك، فأرسل اليه الأمير علم الدين سنجر المسروري في قوة عسكرية قتلته، وولت بعده شمامون النوبي في عام ١٢٧٨ ميلادية.

غزوات المماليك على شمامون:

قبل شمامون الشروط التي فرضت أولا على الملك شكنده، ولكن نظرا لاستحالتها لم يلتزم بها، فأرسل إليه السلطان جيشا كبيرا بقيادة الأمير علم الدين المسروري، والأمير عز الدين الكوراني. بالإضافة إلى الجنود ضم الجيش أقواما من العربان. عندما اقترب هذا الجيش من المريس انسحب الوالي – نائب الملك – المسمى جريس، إلى دنقلا على مراحل حسب تحرك الجيش الغازي. أخيرا احتمع الملك وابن عمه جريس ووقفوا لحرب المماليك.

وكما حدث في السابق فإن الأسلحة الحديثة عند جيش المماليك استطاعت هزيمة الملك شمامون وقومه. أخيرا استطاع شمامون الهرب إلى جزيرة مقرات.

جريس الذي تمكن من الهرب أيضا استطاع المماليك اللحاق به بعد مطاردة أسبوعين. أحضر المماليك جريس إلى دنقلا حيث توصلوا معه إلى اتفاق. عينوا ابن اخت شمامون ملكا وجريس نائبا له. ثم رجع علم الدين المسروري وجيشه بعد أخذ التعهدات بالولاء واحترام الاتفاقات السابقة، آخذين معهم كل شيء من الخيل والجمال والأقمشة القطنية والأسرى الذي استرقوهم.

سريعا عاد شمامون من جزيرة مقرات وهزم حامية السلطان بدنقلا وهزم الملك ونائبه فهربا إلى مصر واستولى على الحكم.

قلاوون يرسل الأفرم:

أرسل السلطان قلاوون جيشا قويا تعداده أربعون ألف مقاتل حديث

التسليح بقيادة قائده السابق الأمير عز الدين الأفرم. تبعت هـــذا الجيـش خمسمائة مركب، وكالعادة أحضر هذا الجيش معه الملك الهارب ونائبــه. ولكن الملك الهارب توفي وهو في أسوان فعين قلاوون أميرا نوبيا يدعـى بودمه، وهو ابن أخت الملك داؤد بدلا عنه.

استقبلت أرض نبته القديمة جيش المماليك بـــالولاء، فعيـن الأفـرم جريس واليا على المنطقة.

تقدم الجيش إلى دنقلا ولكنه وجد الطريق قد أخلــي مـن السـكان والممتلكات. سار الجيش في أرض خالية إلا من زروع وبعــض الذيـن تخلفوا. قتل الأفرم المتخلفين وترك خيوله ترعى الزروع.

عندما وصلوا إلى دنقلا في أواخر عام ١٢٨٩ ميلاديـــة وجـدوا أن شمامون أخلى المدينة وهرب إلى جزيرة مقرات.

أوقف الأفرم مراكبه في دنقلا وسار هو وجيشه إلى جزيرة مقــرات حيث استسلم له القادة والأمراء ورجال الكنيسة وهرب الملك شمامون مرة أخرى.

رجع جيش الأفرم إلى دنقلا ونصب الملك بودمــه ملكـا بالشـروط القديمة ثم عاد إلى القاهرة فوصلها في مايو عام ١٢٩٠ ميلادية، أي بعـد ستة أشهر من مغادرته لها. وبالطبع رجع حاملا معه كل ما استطاع نهبه من المتاع والبشر.

شمامون يعود:

رجع سريعا شمامون إلى دنقلا ليلا، فجمع عساكره القدامى وقبـض على الملك ومن بعده نائبه جريس.

طرد شمامون حامية المماليك في دنقلا التي كان يقودها ركن الدين العزي. ثم أتى بالملك بودمه وعراه من ثيابه وربطه بسيور ثور حديث الذبح، فجفت فيه وقتلته. كذلك قتل نائبه.

عندما وصل الخبر إلى السلطان قلاوون لم يستطع أن يفعل شيئا نسبة إلى ازدياد نفوذ الصليبيين في عكا وفلسطين. في نفس العام توفي قلاوون ونصب ابنه خليل الأشرف سلطانا على مصر.

عهد الأشرف وضعف النوبة:

إبان عهد الأشرف كما يبدو انشغلت مصر بالصليبيين، والنوبة ببلادهم المخربة المضمحلة. وقد زاد الاضمحلال بعد موت شمامون (بين عامي ١٢٩٤-١٢٩٦ ميلادية) ويقال إن ملكا أو ملوكا حكموا بعده، وقد اختلف المؤرخون حتى في أسمائهم. ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن نفوذ المماليك والعرب الذين تزاوجوا بالنوبة قد مكنتهم من فرض نفوذهم على البيوت الحاكمة. وخصوصا أن مكانة المرأة النوبية قبل وبعد المسيحية وخلالها كانت مكانة كبيرة أعطتها حتى حق التدخل في الحكم، والوصول إلى العرش هو من حق ابن الأخت.

إن الشيء الذي يمكن تسجيله بشيء من الدقة في تلك الفترة هو إرسال السلطان في مصر لجيش قوامه المماليك وتتر مصر والأعراب، تقدم هذا الجيش إلى دنقلا لمناصرة ملك من ملوكها، وكان بقيادة سيف الدين طقصبا والي قوص. لقي هذا الجيش الأمرين فلم يجد ما يقتات به وما ينهبه بأرض النوبة ورجع بعد تسعة أشهر دون أن يحقق شيئا.

شيء آخر كان له تأثير كبير في انحطاط مملكة دنقلا وهو النزاعات التي نشأت بينهم وملك الأبواب الذي نصب نفسه شرطيا للقبض على

الهاربين من سلطان مصر وارسالهم إليه. وبازدياد ضعف دنقلا استطاع حكام الأبواب من التعدي على أرضها وتخريبها.

آخر ملوك المسيحية بدنقلا:

في عام ١٣١١ ميلاديه استطاع نوبي يدعى (كدنبس) من الوصول إلى الحكم بعد اغتيال أخيه الملك.

لم يعجب هذا السلطان الناصر بن قلاوون، فأرسل جيشا بقيادة الأمير عز الدين آيبك، وفي صحبته ابن أخت الملك داؤد ويدعى سيف الدين عبد الله برشمبو. نشأ برشمبو في قصر السلطان واعتنق الإسلام. خطة اتبعها حكام مصر من قديم في الاحتفاظ بالملوك وأبنائهم واللاجئين والمطرودين والمعزولين للاستفادة منهم في الاستيلاء على السلطة في السودان متى كان ذلك مواتيا لمصالحهم.

دخل الأمير عز الدين ايبك إلى دنقلا فهرب الملك كدنبس إلى الأبواب حيث قبض عليه حاكم الأبواب وأرسله إلى المماليك.

نصب القائد المملوكي، سيف الدين عبد الله برشمبو ملكا على دنقلا، وذلك في عام ١٣١٦ ميلادية.

برشمبو الملك المسلم على دنقلا:

بذلك التنصيب أصبح سيف الدين عبد الله برشمبو أول ملك مسلم على عرش دنقلا. جدث ذلك في زمن كثرت فيه أعداد المسلمين من المماليك والعرب بها.

اختل الأمن في شرق البلاد كما اختل في شمالها من قبل. استطاع

العرب قطع الطريق بين عيذاب وقوص ونهبوا هدايا كانت مرسلة من ملك اليمن إلى السلطان في القاهرة. حدا ذلك بالأخير إلى إرسال جيش استطاع طردهم من سواكن وطاردهم حتى كسلا، حيث قاتل هناك الحلنقة.

رجع هذا الجيش عن طريق الصحراء إلى الأبواب، فنهب كل شيء لقيه في الطريق. لم يستضفهم حاكم الأبواب إلا يوما واحدا، ولكن برشمبو في دنقلا قدم لهم احتياجاتهم ورجعوا لمصر.

أهم أعمال برشمبو كان افتتاح أول مسجد بواسطة الملك في التاسع والعشرين من مايو عام ١٣١٧ في الطابق الثاني من قصره في دنقلا.

قتل برشمبو واستيلاء كنز الدولة:

أرجع سلطان القاهرة الناصر بن قلاوون، سجينه كنز الدولة إلى أسوان لكي يدير سواقيه التي إلى الجنوب منها، ويدفع خراجها المستحق للأعتاب السلطانية.

وعندما وصل كنز الدولة إلى الدر استقبله النوبة استقبال الملوك، رغم أنه أصبح مسلما إبان سجنه في مصر. بعد ذلك نصبوه ملكا على النوبة بسبب ما عانوه من حكم برشمبو الإسلامي، الذي لم يستسيغوه. كان برشمبو قد أمر على استخلاص الجزية من مسيحييهم، وأخذ الخراج إلى السلطان من كدح المواطنين.

تقدم كنز الدولة إلى دنقلا وحارب برشمبو وقتله. بعد أن استولى على الحكم لم ينصب نفسه ملكا، لأنه كان مقتنعا أن الملك من حق خاله الملك كدنبس المسجون بمصر. حدث ذلك في نهاية عام ١٣١٧ ميلادية.

سلطان المماليك يعين أبرام ملكا:

استيلاء كنز الدولة على الملك أخاف سلطان المماليك. السبب هو الدماء العربية التي تجري في عروق كنز الدولة. بالإضافة إلى عروبته فهو نوبي يحبه أهله وله شعبية بينهم. كل ذلك قد يمكنه من الحصول على تأييد العرب والنوبة على السواء، فيعيد صياغة المقره من جديد وتعود لها قوتها ومهابتها القديمة.

في يناير ١٣١٨ أطلق الناصر قلاوون أبرام المسجون مع أخيه الملك كدنبس بمصر، لكي يحتال على ابن أخته كنز الدولة ويقبض عليه ويرسله إليه في مصر. بعد ذلك يصبح أبرام ملكا على دنقلا. كما وعده السلطان أيضا بإطلاق سراح أخيه كدنبس.

ذهب أبرام فاستقبله كنز الدولة استقبالا كريما وتوجه ملكا على دنقلا. وفي رحلة لهما لتوطيد الحكم ذهبا إلى الدر، حيث استطاع أبرام القبض على كنز الدولة لإرساله لمصر، ولكن أبرام توفي بعد ثلاثة أيام. اجتمع النوبة ونصبوا كنز الدولة ملكا.

وبسرعة استطاع كنز الدولة توحيد النوبة والعرب واستقل بمملكته.

كدنبس يصير ملكا مرة أخرى:

أرسل الناصر بن قلاوون في نوفمبر ١٣٢٣ الملك السابق كدنبس، الذي أصبح في الأسر مسلما، بصحبة جيش لتنصيبه ملكا. عندما وصلا إلى دنقلا هرب كنز الدولة جنوبا، ونصب كدنبس ملكا. بعد رجوع الجيش إلى مصر في نفس العام رجع كنز الدولة واستعاد الحكم بعد أن هزم خاله. الملك كدنبس هرب إلى أسوان في انتظار عون سلطاني.

الخطر الذي كان يجابه مصر من أوربا منعها من إسقاط كنز الدولة. وفي عام ١٣٢٦ ميلادية اعترف السلطان بكنز الدولة ملكا.

نهاية دولة النوبة الشمالية:

البقية من القرن الرابع عشر شهدت الفوضى التي عمت أرض نبته والمقره القديمتين - أي أرض النوبة الشمالية. إن استيلاء أبناء كنز الدولة على الحكم بعد دخول الدماء العربية فيهم وأصبح ملوكهم من المسلمين، قادت إلى ضعف كبير. بدأت هذه الدولة المسيحية القديمة في الانهيار بسبب اختلاف التوجه والفقر وعدم اذعان سكان المملكة لحكم عربي إسلامي، والتدفق العربي من قبيلة جهينة على أرضهم. فشل النوبة في إبعاد العرب فزوجوهم بناتهم. هذا قاد إلى استيلاء أبناء الأخت على الحكم. وبذلك ازداد نفوذ العرب الذين بطبعهم ليسوا أهل حواضر، ومعيشتهم لا تقوم إلا على الرعي والبادية. توقفت العمارة وتجنيد الجيوش وتوفير الحياة الآمنة للسكان.

تنصيب الملوك استمر في نزاعات متكررة يحسمها المماليك بإرسال جيش يناصر من ينفذ مخططاتهم في البلاد.

نفس الشيء حدث في مملكة نبته القديمة حيث زاد نفوذ قبيلة ربيعه على المنطقة. ولعل الحملات المصرية أصبحت أقل عدة وعددا، لأن مردود هذه الحملات من النهب والسلب أصبح شحيحا. زد على ذلك فحرب أهل بداوة أكثر إرهاقا، وتأخذ أوقاتا أطول، ولا تأتي بانتصار نهائي ولو كان مؤقتا. وهذا ما حدث في حملة حاجب الحجاب عندما دخل في اشتباكات مع بني عكرمة وبني كنز في الدر. وقد هاب الذهاب إلى دنقلا خوفا من حرب بني جعد.

إن آخر تاريخ يمكن أن نجده كانت فيه دنقلا مملكة بها أمن وملك مسيحي هو عام ١٣٤٠ ميلادية، عندما زارها الراهب الأثيوبي (اوستانيوس). بعده تفرقت المسيحية إلى جيوب صغيرة حكم هذا أو ذاك أمير أو حاكم صغير. وكان على هذه المستوطنات المسيحية أن تبني حصونا في الجبال وغيرها لحماية نفسها. استمر هذا حتى القرن الخامس عشر.

دولة المسيحية المتلاشية في دنقلا:

هذه الدولة التي رأيناها تنهد لعوامل متعددة قد بقيت مسيحية قرابة الألف عام، حاربت فيها الإسلام بمصر لعدة قرون متلاحقة، واستمرت قائمة رغم كل العوامل العالمية والمحلية التي وقفت في وجهها، وطورت حضارة معقولة إذا أخذنا في الاعتبار فقر أراضيها.

نشأت في هذه الدولة ستون كنيسة على طراز أو حجم كنيسة فرس. بنوا أولا كنائسهم من الحجر والطوب الأحمر، ولكن فيما بعد رجعوا إلى الطوب الأخضر (غير المحروق).

كانت كنائسهم أولا واسعة، ثم أصبحت صغيرة والمصلون يقفون في الفناء الخارجي.

لتعميد أطفالهم حفروا أولا بركا في الكنائس، ٥في النهاية أخذوهم إلى النيل.

في بعض القرى نجد أن الكنيسة كانت عبارة عن مرصوصات حجرية يقف المصلون بينها.

الرسومات التي على الكنائس وفنونها التي أبدعوها كانت تنتمي إلى الفن البيزنطي.

اللغة التي استعملوها في كنائسهم وصلواتـــهم أولا كـــانت القبطيـــة واليونانية. ولكن عندما تمكنوا من كتابة النوبية بحـــروف أخذوهـــا مـــن اللغتين السابقتين، مع تعديل لبواكب موسيقى لغتهم، استعملوا النوبية.

إن الأساقفة الذين تبوأوا هذه الكراسي بفـــرس وسـجلت أسـماؤهم وتواريخ توليهم وموتهم، بلغوا ثمانية وعشرين. والملاحظ لتلك القائمـــة يرى أن كل الأساقفة عينهم البطريرك الرومي أو القبطي في الإسكندرية، وأن أغلبيتهم العظمى من الأجانب. وبين هؤلاء لم يـــرق إلـــى درجـــة المطران إلا واحد. إن دولة النوبة في دنقلا أو في سوبا لـــم تمتلـــك أي منهما معاهد لتعليم من سيصبحون شماسين وقسسة وراهبات. وعلى مـــا يبدو أن المرأة لم تشترك أصلا في التبشير المسيحي، وإن فعلـــت فـــإن دورها كان قليلا.

والملاحظة الثانية أن المسيحية كانت متأصلة في البيوت المالكة وفي رجال الدولة وزعمائها، بل منهم من تنسك. أما بالنسبة لعامـــة الشـــعب وخصوصا في المناطق البعيدة من المدن فقد كانت مسيحيتهم سطحية

ضعف علوه:

استمرت علوه مستمتعة بخيرات أراضيـــها الخضـــراء ومراعيـــها الواسعة، وابتعادها عن الحروب ما أمكن. إلا أن بعض المشاكل غشيتها. أولا انقطعت تجارتها الخارجية بسبب تحركات القبائل العربية إلى الشمال والشرق منها وفي داخل أراضيها. ثانيا ابتعادها من الحضارات المسيحية الخارجية في أوربا بسبب المسلمين بمصر، والعرب المسلمين في شـــرق السودان وشماله وأواسطه. ثالثا فإن المسلمين رغم عدم تنظيم قبائلـــهم إلا أنهم حملة ثقافة قوية لا تستطيع معها حضارات مسيحية معزولة قرونـــا،

من الوقوف في وجهها. أضف إلى ذلك أن القبائل العربية بفوضويتها الاقتصادية قد جعلت التجارة الخارجية والداخلية عرضة للنهب والسرقة والفوضى الإدارية. لكل ذلك وبسبب القدم ضعف الاقتصاد بها، فضعفت يدها القابضة على أقاليمها وحكمها، وصعبت موارد دولتهم. ورغم كل هذا، فعلوه بقيت متماسكة حتى يوم هزيمتها.

هزيمة علوه الأولى:

نقل الشيخ الفحل الفكي الطاهر - صاحب كتاب (تاريخ وأصول العرب بالسودان) - عن شيوخ الدين الذين سكنوا سوبا شرقها وغربها مثل الحاج حامد ود كبيدي أول من سكن جده سوبا الشرقية بعد خرابها، ومثل الشيخ علي ود عيد من سوبا الغربية، أن هزيمة سوبا حدثت على مرحلتين: المرحلة الأولى اتفق فيها حميدان بن صبح بن مسمار الذي عاد من بارا وسكن جبل العرشكول بالقرب من الدويم، مع قائد قبائل قحطان حيدر بن أحمد بن حمد على غزو سوبا.

في صيف عام ٨٨١ هجرية (١٤٧٦ ميلادية) تحرك حميدان بجيشه من جبل العرشكول وعبر النيل الأبيض بمخاضة أبي زبد. في سهل الجزيرة التقى قبائل قحطان بقيادة حيدر بن أحمد فواصلوا السير إلى سوبا. اشتبكوا بجيش سوبا الذي قاده الملك. كانت تلك الحرب ضروسا واستمرت عدة أيام. ويرى الشيخ الفحل أن نزاعا نشب بين الملك (عفايق) والبطريق (ديري ين)، فانهزما وقتل الملك.

استولى جيش حميدان وحيدر على سوبا وهرب البطريق. لم يخرب هذا الجيش سوبا وإنما استولى على غنائمها ولم يتعرض لكنائسها الأربع - كنيسة الشاطئ، وكنيسة قصر الملك، وكنيسة المربعات، وكنيسة باب

الذهب التي قيل إن الشيخ عبد السلام ود كبيدي وجد في مدخل أرضي بها بابا ذهبياً أو موشى بغشاء ذهب. ويقول صاحب كتاب (تاريخ وأصول العرب بالسودان) إن البطريق عاد إلى سوبا بعد موت حميدان ومعه جيش يتكون من النوبة والأحباش والبجا وقام بتعميرها وتنصيب ملك عليها.

هزيمة علوه الماحقة:

يقول كاتب الشونة – أحمد بن الحاج أبو علي – في مخطوطته "جماعة فنجه تصل إلى شرق إفريقيا وتختلط وتكون مجموعة أصلها من البيت الأموي في عهد عبد الملك بن مروان". ويستمر في القول "إن هذه المجموعة أتت إلى إرتريا وكان مركزها (لامو) أو (لملم) غرب إرتريا. وفي ولاية عماره بن عدلان دنقس، جاءوا إلى (لولو) واستمرت جموعهم في الازدياد إلى أن انتقلوا إلى جبل مويه المعروف، ثم ذهبوا إلى مكان على النيل تسكن فيه جارية تسمى سنار".

وحسب قول كاتب الشونه فإن عماره خط سنار عام ٩٠٠ هجرية، وحجازي بن معين خط (أربجي) قبلها بثلاثين عاماً.

عماره دنقس شكل من أهله الفنج قوة مسلمة قوية استطاعت أن تتحالف مع قبيلة عربية قوية الشراسة، رغم قلة نفرها، هي العبدلاب. العبدلاب هم من عرب القواسمة الذين كان على رأسهم عبد الله جماع القريناتي. اتفق الاثنان على تكوين دولة يكون فيها الملك للفنج والوزارة للعبدلاب.

قرر الاثنان الهجوم على سوبا وإنهاء حكمها المسيحي وإزالة كل أثر لها.

وفي حوالي عام ١٥٠٤ ميلادية هجم الفنج والعبدلاب على سوبا، فقتلوا ملوكها، وكسروا كنائسها، وأزالوا عمرانها، وأصبحت مثلا للخراب تتناقله الأجيال السودانية.

تفرق النوبة في جبال فازغلي وكردفان وعلى طول نهر النيل شرقا حتى ودقمر بأرض المناصير. أبدلوا أسماءهم ودينهم إلى الإسلام وتزاوجوا بالقبائل التي نزلوا معها. لم تبق من آثار حضارتهم القديمة إلا اسم القرية الذي يكون في أغلب الأحوال (النوبه) وبعض أسماء مسيحية مثل (ماريا) التي سموا بها التلال والوديان.

وكما زالت نوبة الشمال (نبته والمقره) زالت نوبه الجنوب (علوه). وبزوال النوبتين زالت المسيحية، ولكن كثيرا من العادات المسيحية التي كانت في نبته والمقره وعلوه بقيت حاملة لآثار التاريخ المسيحي بالسودان. وبالقرب من الرصيرص، استطاع النوبة تجميع بعض من شتاتهم، فكونوا قبيلة، بعض قراها تسمى سوبا، ولا زالوا يجلونها ويقسمون بها.

قيام وسقوط مملكة الفونج:

اتسعت مملكة الفونج فملكت شمالا حتى دنقلا، وشرقا حتى الحبشة، وغربا دخلوا في نزاعات مع مملكة الفور على أراضي كردفان.

دخلت مملكة الفونج (ولها اسمان آخران.. مملكة سنار والمملكة الزرقاء) في حربين داميتين بسبب خوف ملك سنار من تحركات المسيحيين عبر مملكته إلى الحبشة.

ففي نوفمبر عام ١٧٠٥ قتل الفونج البعثة الفرنسية إلى الحبشة،

فجندت الأخيرة جيشا ضخما هزم الفونج. ولكن ملك سنار استعاد قوته وهجم على الحبشة وهزمها هزيمة نكراء.

إن الحرب لا تذهب بغير ثمن، فدائما تضعف قوة الشعوب بسبب تكاليفها وفقدان أرواح بنيها، وما يصيب كل الأراضي التي تتحرك فيها الجيوش المقاتلة من خراب.

كل ذلك أضعف التجارة التي كانوا يقومون بها مع أرجاء متعددة من العالم عبر سواكن التي حكمها الأتراك.

ضعفت مملكة الفونج في سنار، وكانت قوة العبدلاب قد اضمحلت قبلها. كثرت النزاعات الداخلية بسنار بين الوزراء والملوك، وازدادت الحروب القبلية على الأرض والكلأ وغيره.

كل ذلك جعل من جميع المملكة ثمرة ناضجة تنتظر أي قوة خارجية تلتقطها.

الحكم التركي المصري بالسودان

جيش محمد علي يدخل السودان:

انتهز محمد علي الكبير في مصر فرصة ضعف السودان فأرسل ابنه إسماعيل على رأس أربعة آلاف وخمسمائة جندي من الأتراك والأرناؤط والمغاربة، يحملون بنادق تحشى من المقدمة، وأربعة وعشـرين مدفـع ميدان خمسة أرطال، كبير طبجيتها أمريكي يدعى (انجلش). تساند هـذا الجيش قوة إمداد ونقل قوامها ثلاثة آلاف مركب. على القوة الأخـيرة أن تنقل إسماعيل وجنده وإمداداته من أسوان إلى دنقلا، ثم تعود إلى أسـوان لتحمل جيشا آخر بقيادة الدفتردار، وتأخذهم إلى الدبه مـن حيـث يشـق طريقه من هناك إلى كردفان ودارفور لفتحهما.

عندما ارتفعت مياه النيل بالفيضان في يوليو ١٨٢٠ تقدمـت قـوات إسماعيل البحرية والبرية، فاستسلم لها في الدر حسن كاشف بعد هـروب أخيه حسين، ثم في السكوت استسلم الكاشف حسن وردي، ولكنه ضـاق بالأتراك فثار فقتلوه. الملك صبير تبعهم في الاستسلام في عاصمة المحس دلقو. في أرقو استسلم الملك طنبل، وفي دنقلا العرضي استسـلم بعـض المماليك، وهرب الباقون إلى أرض الجعليين.

إسماعيل في أرض الشايقية:

ملك مروي شاويش، وملك غرب أرض الشايقية الملك صبير اتفقـا على مقاومة الجيش الغازي. الملكان لم يجدا من يساندهما عسكريا من كل القبائل حولهم لأنهم كانوا على عداء معهم. مملكة الفونج لم يكونوا جزءا منها.

أول فرقة خيالة من العدو دخلت أرضهم في نوفمـبر ١٨٢٠ لاقـت

هزيمة منكرة، عندما قتل الشايقية منهم سبعين فارسا وهـــرب الخمســة والعشرون الباقون.

بالقرب من كورتي هجم إسماعيل بقواته وأسلحته النارية على قـوات جاويش وصبير. استطاع هذا الجيش الغازي هزيمة الشايقية في ســاعات ثلاث، وحصد منهم أعدادا كبيرة ببنادقه ومدافعه. كان إسماعيل يعطي كل جندي يقتل شايقيا مكافأة إذا قدم له أذني القتيل. أتى لإســـماعيل جنـوده بآذان من قتلوهم ومن لم يقتلوهم.

قبضت قوات إسماعيل أثناء المعركة على مهيره بنت عبـــود التـــي كانت تشجع أهلها على القتال. إسماعيل استقبلها استقبالا كريما وحملـــها بالهدايا وأرجعها مع أحد ضباطه عبدي كاشف إلى والدها شيخ السوراب. سلم السوراب والملك صبير لإسماعيل وهرب الملـــك جـــاويش وقواتـــه المتبقية إلى أرض الجعليين. إسماعيل ضم قوات الملك المستســـلم إلـــى جيشه وساروا معه جنوبا.

الأتراك في بربر:

في الخامس من مارس ١٨٢١ وصل إسماعيل إلى بربر. استسلم لـــه هناك المك نمر بعد أن أصر على استقدامه من شندي ولقي منه معاملـــة غير كريمة. تقدم الجيش إلى شندي وعاث في أرضها تخريبا، ولكن هناك استسلم له الملك جاويش وجماعة من المماليك.

إسماعيل في أرض العبدلاب والفونج:

في الحلفايا جاء الشيخ ناصر الأمين وسلم إسماعيل مملكة العبـدلاب. تقدم الأتراك وعبروا النيل عند الخرطوم وتوجهوا إلى سنار. لـــم يجـد

الملك بادي السادس غير الاستسلام لإسماعيل. في الثالث عشر من يونيو عام ١٨٢١ وقع الملك على التنازل على أنه تنازل لخليفة المسلمين في القسطنطينية.

عندما وقع بادي على معاهدة الاستسلام هذه لم يكن مع إسماعيل أكثر من ألف وخمسمائة جندي مهلهل الثياب، بعد أن وضع حاميات في الطريق لتأمين إمداداته.

وبذلك انتهى حكم دولة الفونج الذي دام حسب كلمات أحمد بن الحاج أبو علي (كاتب الشونه) ثلاثمائة وخمس وثلاثين سنة وثمانية شهور هجرية.

الأتراك في كردفان:

الدفتردار وصل بقواته إلى بارا حيث قاتل المقدوم مسلم والي كردفان. لم تنفع الأخير البسالة، وحصدت الأسلحة النارية قواته في ١٦ أبريل ١٨٢١.

لم يتقدم السلطان محمد الفضل - سلطان دارفور - لحماية كردفان وعدل الدفتردار عن التقدم لأرض دارفور.

الأسباب التي من أجلها جاء الأتراك:

إن أغراض محمد علي للاستيلاء على السودان كثيرة ولكن أهمها:

١-الحصول على الذهب الذي سمع به قبلا.

٢-توسيع رقعة جني ضرائبه.

٣-الحصول على أرقاء من مناطق أعالي النيل يبدل بهم جيوشه التي أبت التحديث الذي كان يريده لجيشه على النمط الفرنسي.

٤-تأمين منابع النيل.

فشل المقاصد:

رغم إرسال محمد علي الكبير لابنه إبراهيم لكي يصطاد له الرقيق من أعالي النيل، إلا أنه مرض وفشلت مقاصده إلا من صيد قليل.

بخصوص الذهب فرغم المحاولات الجادة لاستخراجه، إلا أن المحاولات فشلت في الحصول على ذهب تجاري.

أما قصة النيل فإن المناطق التي احتلوها بها نيل ولكن ليست بها منابعه التي كانت أغلبيتها مجهولة في ذلك الزمان.

الضرائب التي سعى لها قادت إلى ثورات متعددة، وإلى هجرة السكان من مناطق تجمعاتهم الزراعية والحضرية.

زد على ذلك فإن إسماعيل نفسه حرقه الجعليون مع مائة من جنوده في طريقة راجعا إلى مصر في ديسمبر عام ١٨٢٢.

قاد هذا الحرق إلى عملية انتقام قام بها الدفتردار في أواخر عام ١٨٢٣. قضى الدفتردار على كثير من الحسانية، وأهل الحلفايا والعيلفون وشندي وأحرق الدامر، وهاجم القبائل البدوية بما فيها الكبابيش الذين أعانوه عند دخوله بالجمال إلى كردفان. المك نمر ذهب إلى الحدود الحبشية وأقام مدينة هناك مع أهله أسماها المتمة وأقاموا بها.

الذي لا جدال عليه إن عملية الانتقام هذه شكلت الخلفية السياسية لكل

علاقات السودان بمصر منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا.

وهكذا رزح السودان تحت حكم تسلطي قمعي جاهل فاسد ومتعفن، لمدة ستين عاماً.

الاستعمار التركي المصري في السودان:

أرسلت مصر إلى السودان ثمانية عشر حكمدارا اتخذوا من الخرطوم عاصمة لحكمهم. أفضلهم كان جاهلاً علما وعملاً. أما بقيتهم فقد لجأوا إلى الفساد والرشوة والعنف لإبقاء السودان تحت التسلط والنهب المصري. هجر السكان المناطق الزراعية خوفا من الضرائب التي تجبى لمصر، وللجنود الذين يأتون لجمعها. أما الذي لا يدفع فقد كان له التعذيب والربط في الشمس والضرب وسجن القطط في ملابس الرجال الداخلية السفلى. وحتى الذي كان لهم موقف موال للحكومة المصرية مثل الشيخ محمد شريف نور الدايم، فقد وصف الحال في أبيات شعر (تاريخ السودان الحديث ١٩٨٠ صفحة ١٢٠) يقول فيها:

وما أبت السودان حكم حكومة — إن أتى ضعف المطاليب من مصر
كالثلث والثلثين للمير وحده — وللشيخ والنظار أضعافه فأدر
بضرب شديد ثم كف مؤلم — من بعد الإلقاء في الشمس والحر
وأوتاد ذي الأوتاد من بعض فعلهم — وأشنع من ذا كله عمل الهر

إن الذي يهمنا من كل هذا الحكم في هذا الكتاب هو أنه من خلال هذا الحكم عادت المسيحية إلى السودان مرة أخرى.

عودة المسيحية إلى السودان

القس الطريد:

في أوائل شهر مايو عام ١٨٤٢ ميلادية، نزل من مرتفعات الهضبة الحبشية قس (لازاري) حافي القدمين، يصحبه في رحلة اللجوء إلى الحكم التركي بالسودان - بعد أن طرده إمبراطور الحبشة - رجل دبلوماسي يدعى إدوارد بلونديل فان كارل بروك (لازاري تعني الطائفة الكاثوليكية التي ينتمي إليها).

في العشرين من مايو تلقتهم أول لفحات من حرارة الخرطوم التي لطفتها بعض رطوبة من النيل الأزرق والأبيض وبعض الحدائق التي نعمت بها الخرطوم.

الخرطوم الفاجرة:

استقبلت الخرطوم الأوربيين استقبالا طيبا قلل من حرارة الجو المحيطة بهما. إن القس اللازاري، ويدعى (لويجي مونتوري) اقتنع أن الخرطوم في حاجة إليه أكثر من إمبراطورية أسد يهوذا. فقد وجد القس أن هناك عددا كبيرا من المسيحيين الأوربيين، وحتى أقباط مصر، ليست لهم كنيسة تقدم الخدمات الدينية التي يحتاجونها، وتقنن لهم زواجهم.

رأى مونتوري أن إنشاء كنيسة كاثوليكية، ستساعد كثيرا في خدمة الكاثوليك، وخصوصا فإن كل الكاثوليك الأوربيين كانوا يعيشون مع نساء أثيوبيات وغير أثيوبيات دون عقد زواج ديني أو مدني.

بالإضافة إلى ذلك وجد بالخرطوم عددا ضخما من المواطنين الوثنيين الذين لن يجد صعوبة في إقناعهم بالدخول في ديانته.

لم يهتم الأوربيون ماذا يفعل القس بديانة الإفريقيين، ولكــــن الــذي امضهم هو أن هذا القس يريد أن يعيد القيم الدينية التي نســـوها منـــذ أن بارحوا قارتهم الأوربية. كانوا يأتون إلى الخرطوم ويعيشون في الخطيئة مع أجمل ما يجدون من نساء غريبات أو فقيرات، وينجبون أطفــــالاً، إذا سافروا تركوهم دون معين أو رعاية، وإذا ماتوا - بسبب تفشي الأمراض - فمخلفاتهم من إرث يطالب بها أهلهم عن طريق قنصلهم في مصر، ولا يعترفون بأبنائه أو خليلته. لذلك كان موقف الأوربيين الكاثوليك من القس مشوباً بالشك وعدم الرضا. لم يقدموا له أي معاونة تذكر، لذلك بقي عليه هو أن يقوم بالمبادرات.

قصة الكنيسة والمقبرة:

ذهب مونتوري مع صديقه البلجيكي إلـــى حـــاكم الســودان العـام (الحكمدار) أحمد باشا أبو ودان، مطالبين بكنيسة للكاثوليك ومقبرة لكـــل المسيحيين بما فيهم الأقباط.

كان موقف الحكمدار بالنسبة إلى المقبرة صعباً، فهو حاكم لا يعطـــي بدون مقابل لجيبه. وافق على قطعة أرض تقع اليوم في داخليـــة كــرار التابعة لكلية طب جامعة الخرطوم. أما بالنسبة إلى الكنيسة فلـــم يشـــأ أن يخصص لها أرضاً، ولكن عرض عليهما صفقة تجارية هو سمســـارها. عرض عليهم منزل البمباشي سليم قبطان، الذي كان يعمل فـــي ترســانة الإسكندرية وأرسل إلى الخرطوم في عام ١٨٣٩، لكي يستكشف لمصـــر أبعد نقاط على النيل الأبيض لإضافتها إلى مستعمراتها. في مـــايو ١٨٤٢ كان قد قرر الرجوع إلى مصر بعد ثلاث رحـــلات فـــي أعـــالي النيـــل الأبيض. وعلى ما يبدو أنه لم يقتنع بوجود إمكانيات فعلية للتوغـــل فـــي احتلال الأراضي الإفريقية. منزله الجميل كان يتكون من غرفتين وفرنـــده

بني بالطين بناء جيدا، وهو يقع في مكان مباني ولاية الخرطوم الحاليــة. كان المنزل محاطا بأشجار التين والرمان التي تسقى من الحفرة التي أخذ ترابها لبناء المنزل. إن المياه تصل إلى الحفرة من الفيضان الذي يغمرها ومن التسرب لانخفاضها عن مستوى النيل في عدة شهور مـــن الســنة. مساحة المنزل كانت ألفي متر مربع، بطول شرقي غربــي قــدرة مائــة وعشرة أمتار وبعرض يقل عن عشرين مترا. اشــترى الأب مونتــوري المنزل دون تردد. وبعد ساعات من دخوله كانت خطته جاهزة لما سيفعله فيه.

ولم لا:

لبس الأب مونتوري عندما كـــان بالحبشـــة البنطلــون والقميــص الأوربيين، مع قطعة قماش يلفها حول البطن، وشال يضعه حول عنقـــه. قدماه كانتا حافيتين تماما. في الخرطوم وجد أن هذه الملابس لا تصلـــح، ووجد أن رجال الدين المسلمين يلبسون قفاطين الأزهر، فيظهرون أكـــثر احتراما. عندها قال قولته الشهيرة.. ولم لا.

خاط القس قفطانا أبيض به حزام من الحريـــر المنقــوش بزهــور صغيرة حمراء. فوق ذلك جبة زرقاء تصل إلى قدميـــه. علـــى رأســه طربوش مغربي أحمر بزر أسود وحوله عمامة بيضـــاء. علـــى قدميــه مركوب تركي بلون التوت. كل ذلك على جسم متوسط الطــول وبشــرة بيضاء لسعتها الشموس. ظهر القس بشخصية تدعو للاحــترام والتجلــة. أسماه المسيحيون الأقباط (قسيس الكاثوليك) وأســماه المســلمون (بابــا فرانكو).

بابا فرانكو في سوق الخرطوم:

على بعد ثلاثمائة متر تقريبا من منزلـــه ســوق الخرطــوم، بــه القصابون وباعة الخضر والحبوب والزيوت والسمن والفاكهـــة وبعــض البقالات التي تأتي من أوربا ومصر، وأقمشة الهند وسوريا، وتباكو مصر وتركيا. الحوانيت صغيرة، والتجار ينقل أكثرهم بضائعهم في المساء إلــى منازلهم. في النهار ترش الأرض بالماء وترص البضائع، ويجلس البـــائع على عنقريب (سرير) يدخن الشيشة، وينتظر الزبائن لكي يســـألوا عــن أسعار بضائعه التي في رأيه أنها أجود بضاعة في السوق. حتى إذا جــاء بابا فرانكو استقبلوه استقبالا حارا فهو لا يجادل كثيرا في الأسعار، وقــد اشترى منزلا جميلا. جميع العملات التي كان يتعامل بها فـــي الحبشـــة عملات قابلة للتعامل في السودان. الجنيه الإنجليزي الذي يســـمونه هنــا (الخيالة) نسبة إلى صورة سنت جورج به على حصانه. القلدر النمســـلوي الفضي يسمونه هنا القشلي وفي بعض الأحيان يسمونه أبا طــيرة أو أبــا نقطة نسبة إلى الطائر والنجمة على جانبه المكتوب. حتى ربـــع القلـــدر النمساوي وجده بالسودان، ويحرفون اسمه (الفوريني) إلـــى (الفرينـــي). أيضا وجد الريال الإسباني والخمسة فرنكات الفرنسية.

لم يجد القس مشكلة في التعامل مع الباعة في السوق، رغم ان السوق في الخرطوم كان أكثر سعرا من رصيفه الحبشي.

أول كنيسة كاثوليكية بالسودان ومدرسة:

ما كادت تمر فترة الخريف حتى شمر القس عن ســـاعديه وركــب مركبا أخذه إلى سوبا القديمة – على بعد نصف ساعة من الخرطـــوم – وأمر العمال بحفر الأساسات الموجودة هناك وأخذ طوبها المحـــروق. إن

سوبا القديمة كانت المكان الوحيد القريب من الخرطوم به طوب محروق. حملت المراكب الطوب الذي استخرجوه إلى الخرطوم، حيث بدأ العمال في بناء كنيسته ومدرسته. كان العمل شاقا بحق. لا لأن العمال غير موجودين، ولكن لأن المستوى الذي يعملون به لم يعجبه. إنهم عمال يفقدون الخبرة في بناء الطوب. العمالة الخبيرة بمصر لم ترحل جنوبا، لأن السودان لم يحضر إليه المصريون إلا عندما تستعمل الحكومة القيود لحملهم على الرحيل إليه. كان السودان منفى الذين غضبت عليهم المعية الخديوية. بعض الجنود في الوحدات الهندسية كانوا يقومون ببعض الأعمال البنائية ولكن الذين حضروا إبان عهد خورشيد باشا رجعوا أو ماتوا. البقية الموجودة تدريبها لم يكن مقنعا. لذلك كان على القس أن يقف طوال نهاره موجها بالالتزام بالخيوط التي يقوم بشدها بين أول الحائط وآخره. في المساء كان يفكر فيما سيدرسه في المدرسة، وفي تنظيم الكنيسة والدعوة لها، وفي إبعاد الناموس الذي كان يلسعه دون رحمة.

انتهى البناء واكتملت خططه لما سيدرسه في المدرسة من واقع ما مر عليه من تجارب.

عندما فتحت الكنيسة:

عندما افتتح الأب مونتوري كنيسته، دعا كل الكاثوليك وغير الكاثوليك لحضور احتفاله. لكي يجعل المناسبة أكثر متعة أقنع رجلا كاثوليكيا سوريا يدعى إبراهيم خير بعقد زواجه في الكنيسة الجديدة. خطيبته كانت أرملة رجل فرنسي يدعى (جوزيف فرانسيس فيجيرا) توفي في عام ١٨٤١ عن عمر ناهز السابعة والخمسين، وكاثرين أرملته لا زالت في ثلاثينياتها.

افتتحت الكنيسة بكل العظمة التي كان من الممكن أن تسبغها الخرطوم على هذه المناسبة. عندما بدأت طقوس الزواج، الذي حضره عدد كبير من أهل الخرطوم، كانت الموسيقى تنبعث من آلات نحاسية تعزفها فرقة مصرية من الجيش. لم تكن هناك (نوتة) للعزف، لذلك لم يستطع الأب مونتوري أن يقدم لهم موسيقى لعزفها، بل كان الشيء الوحيد الممكن أن يعزفوه من (ريبيرتوارهم) الخاص.

عندما أشار عليهم القس بالعزف، رأى قائد الفرقة أن عزف السلام الجمهوري الفرنسي يجاري هذه المناسبة، فلم يتردد في عزفه، عندما انتهى (المارسييز) سريعا رأى قائد الفرقة أن يلحقه بسلام السلطان سليم.. ففعل. وكصاحبه انتهى سريعا.. توقف العازفون قليلا فلم يسمعوا أو يروا حركة استحسان. فالسلام الأول جعل العروس الفرنسية تنتصب بعد ركوعها على الدرج الأول أمام المذبح، والسلام الثاني أوقف العريس السوري متجمدا أمام عروسه. اهتدى قائد الفرقة إلى طريقة أفضل فعزف.. مارشا عسكريا!!

عندما افتتحت المدرسة:

عندما تمت مباني الخمس الغرف الجيدة البنيان، كانت الأفكار قد اكتملت تماما في رأس الأب مونتوري. كان يريد أن يعلم الطلبة الذي يدخلون مدرسته الدين المسيحي، والكتابة والقراءة، ثم لأبناء غير الموظفين الحدادة والنجارة والبناء، وأشغال الإبرة للبنات. حدد شهر أكتوبر عام ١٨٤٣ لدخول الطلبة إلى المدرسة.

مر هذا الشهر دون أن يطرق بابه طارق يريد الانخراط للدراسة. لم يكن مفهوما لديه لماذا لا يريد الأوربيون أن يرسلوا أبناءهم إلى المدرسة.

ذهب إليهم في منازلهم لإيجاد إجابة، وفي الحقيقة لم يجد إجابة شافية كافية. ولكن الذي توصل إليه كان صحيحا، فوجوده في الخرطوم لم يكن مرغوبا فيه من ناحية الأوربيين. ثانيا لم يكن بين هؤلاء الأوربيين من ينظر إلى أبنائه من الأثيوبيات وغيرهن نظرة بنوة بحق.. فهم بكل المقاييس الأوربية حينها أبناء خطيئة.

الأقباط كانت لديهم مدرستهم الخاصة، أما الإفريقيون فمفهوم التعليم لم يشق طريقه إلى خلايا عقولهم بعد.

جلس القس اللازاري ليرى أهرامات آرائه تتهاوى أمامه، ولكنه كان أكثر عزيمة مما توقع الأوربيون له. عندما أظلمت الأرض أمام عينيه، ذهب إلى حديقة أرضه، التي أثراها بأشجار البرتقال والعنب وفتح جداول بجزء منها لزراعتها في الشتاء القادم بالخس والفجل والقرنبيط وغيرها من الخضروات التي أحضر بذورها من سوق الخرطوم. في مكان بعينه نبش حفرة وأخرج ما في بطنها. ما أخرجه كان صندوقا حديديا.. فتحه وأخرج منه بعض مال، ثم أعاد دفنه.

في الصباح خرج مبكرا، ولكنه لم يذهب كعادته لصيد السمك الرائع الطعم من النيل الأزرق، وإنما ذهب لسوق النخاسين واشترى عشرين طفلا!!

عندما تم التسليم في فناء المدرسة، كان قد اشترى لهم قمصانا وأردية من الدمور السوداني. غسل الأطفال أجسادهم، ولبسوا حللهم الجديدة، وتناولوا إفطارهم واتجهوا حسب توجيهاته إلى الفصل الأول من المدرسة. هؤلاء كانوا أول طلبة درسوا في مدرسة كاثوليكية في تاريخ السودان.. قديمه وحديثه.

القس الذي أرهق:

كان الأب منتوري بالإضافة إلى أعبائه الضخمة التي رسمها لنفسه، من إعداد وجبات الأطفال وتعليمهم وتدريبهم، وقبل كل ذلك، إبدال ديانتهم الوثنية إلى مسيحية، تأخذ ساعات طوال من يومه.

عندما بدأ مخزون علبته المالي في الاضمحلال، جاب أنحاء المدينة بحثا عن موارد تساعد إرساليته. كان يريد معلمين لتعليم مبادئ اللغة العربية، وكان يريد من الكاثوليك أن يقدموا بعض الإعانات لكنيستهم الوليدة. وجد مساعدة في المجال الأول؛ أما في الثاني فقد كانت الاعتذارات أكثر من المساعدات. لذلك لجأ إلى عمل زاد من أعماله اليومية، قاد الطلبة إلى حديقة المنزل لزراعة الخضروات سريعة الإنتاج ليبيع جزءا منها في السوق والباقي لإطعام طلبته. كل ذلك الإرهاق في الخرطوم العالية الحرارة الكثيرة الأمراض التي لا علاج لها في ذلك الزمان، الدسنتاريا والتيفويد والملاريا كلها كانت من الأمراض القاتلة. إن الملاريا بلا شك كانت صاحبة اليد الطولى في نهاية حياة الآلاف من المواطنين الأوربيين والعرب والسود. كان سبب تفشيها أمام عيونهم ولكن لم يفكروا فيه. كان بناة المنازل يحفرون حفرة لأخذ ترابها لبنائه. إذا بقيت الحفرة أمام المنزل حتى الفيضان والأمطار امتلأت بالمياه. بالإضافة إلى جنان الناموس هذه، كانت تنبعث من هذه البرك روائح النتن بفعل التخمر والأدران والأوساخ التي ألقيت بها.

إصابات الملاريا التي ألمت بالأب مونتوري تعددت، وزاد من تعددها الإرهاق والعمل المتواصل مما أضعف مناعته.

وفي أقل من عامين من دخوله الخرطوم كان في طريقه خارجا منها.

هذه المرة نحو الشمال، تاركا خلفه مدرسة نال طلبتها بعض تعليم وبعض معرفة بالمسيحية، وكنيسة لم يؤمها بعد تركه لها أحد من الجالية الفرنسية أو النمساوية أو الألمانية.

هذا ولم تصبح الخرطوم أكثر حفاوة بخلفه الأب (سيراو) فتركها سريعا.

الفاتيكان تحاول مرة أخرى:

الفاتيكان هذه المرة أرسلت قسسة ثلاثة مرة واحدة. غادروا القاهرة في سبتمبر ١٨٤٧، وقضوا في الطريق ما يقارب الخمسة أشهر، ليصلوا إلى الخرطوم في الحادي عشر من فبراير ١٨٤٨. هؤلاء كانوا الأب ماكسميليان رايلو، والأب بدمنتا كنوبلخر وثالثهم الأب أنجلو فنكو.

بدأت هذه المجموعة فورا بنفس عزيمة منتوري في العمل الاجتماعي والرسالي. ولكن سريعا سقط قائد هذه العصبة الأب رايلو في السابع عشر من يونيو ١٨٤٨. إي ببقاء في الخرطوم لم يزد عن أربعة أشهر إلا بأيام، وكان أول ضحايا هذا التبشير.

دفن رايلوا في حديقة الكنيسة، شمال فصول المدرسة. وسارت الحياة على رسيمها السابق بقيادة الأب كنوبلخر. هذه المرة كانوا أكثر حنكة، فعندما شعر الأب كنوبلخر أن زميله بدأت تنهد قواه قام بارساله فورا إلى إيطاليا للعلاج والاستجمام. وفي الأشهر الأخيرة من عام ١٨٤٩ كان الأب فينكو في فيرونا بإيطاليا محاولا إقناع زملائه وطلبة المدارس اللاهوتية والمؤسسات الخيرية بأهمية إرسال مبشرين إلى إفريقيا – أي الخرطوم – ومدهم بالمال للقيام بدعوتهم المسيحية.

أحد الذين استمعوا إلى دعوته جيدا، طالب كان يدرس اللاهوت في معهد الأب نيكولا مازا. هذا الطالب الشاب كان يدعى (دانيال كمبوني) الذي اقترن اسمه في المستقبل بالسودان كثيرا.

الشريف حسن:

عندما عاد الأب فنكو إلى الخرطوم في ربيع عام ١٨٤٩، وجد المدرسة في حالة عمل دؤوب، والمزرعة التي أمامها امتلأت بالخضروات والموز والتين والقشطة وتساعد كثيرا في أكل الطلبة ودخل المدرسة.

ولكن ما كاد ينتهي العام حتى وجدوا أن دخلهم وما أتاهم من أوربا لا يكفي لما يقومون به من أعمال. طلب المعونة من المسيحيين بالخرطوم لم يثمر كثيرا، ولكن أكثر من ساعدهم، حتى تلك اللحظة، رجل مسلم من تجار الخرطوم يدعى الشريف حسن والد حسن الشريف حسن أفندي معاون مديرية بربر.

إن الشريف استقبلهم في منزله عندما أتوا في فبراير من عام ١٨٤٨ وأمدهم بالخيام التي سكنوا فيها أولا أمام حجرات المدرسة. والآن هم في حاجة لمساعدته أكثر من أي وقت مضى. اشترى الشريف حسن لهم من ماله الخاص قطعة الأرض التي تفصل بين مدرستهم والنيل الأزرق. إنها أرض خصبة ستزيد إنتاجهم إلى عشرات أضعافه. كانت هناك قطعة أرض صغيرة بها منزل في الجانب الشرقي من تلك الأرض لم تدخل في الأرض التي أهداها لهم، لأنها كانت مملوكة لتاجر فرنسي يدعى (برون روليت).

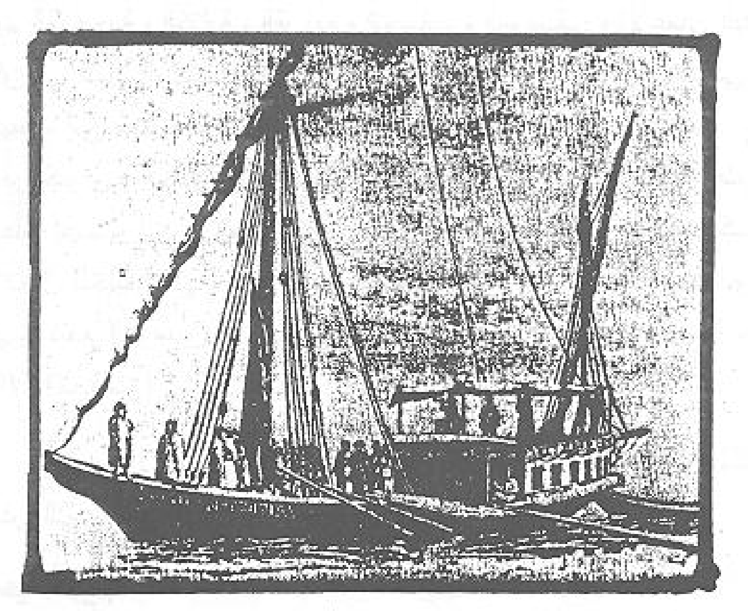
تحسنت الأمور قليلا وازداد الإنتاج الزراعي واستمرت المدرسة في

تعليم المسيحية والكتابة والقراءة والحساب والموسيقى والأعمال اليدوية. ولكن في نفس الوقت فإن مكتشفات (كنوبلخر) التي قام بها على النيل الأبيض إلى جبال (لوف وك) بالقرب من جوبا، أقنعته بأن هناك عمليات تبشير كبرى يجب أن يقوم بها. إن هذا يستدعي العيش هناك وتعلم اللغات المحلية حسب أمر الإنجيل: (وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها. من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن. وهذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمي ويتكلمون بألسنة جديدة. ١٦/١٥مرقص)

إن الرجال والمال المطلوب لكل هذه المهمة لا قبل لهم به، لذلك قرر السفر إلى أوربا.

جمعية مريم:

سافر كنوبلخر إلى أوربا. في فينا كون (جمعية مريم) لكي تقوم بعمليات جمع المال لفكرة التبشير بالمسيحية في السودان. حلت هذه الجمعية النشطة كثيرا من المشاكل التي كانوا يعانون منها. أول نفحات من هذه التبرعات التي جمعتها الجمعية ظهرت في شراء ذهبية نيلية من خير الدين باشا في مصر. غيروا اسم الذهبية إلى (استيلا ماتوتينا - أي نجمة الصباح). حملت هذه الذهبية كنوبلخر ومجموعة المبشرين الجدد الذين أتوا معه إلى الخرطوم. المجموعة تركت القاهرة في العاشر من أغسطس ١٨٥١ ووصلت إلى الخرطوم في السابع من ديسمبر من نفس العام



الذهبية التي أسميت (نجمة الصباح) اشتريت من مصر لتعمل في التبشير في جنوب السودان

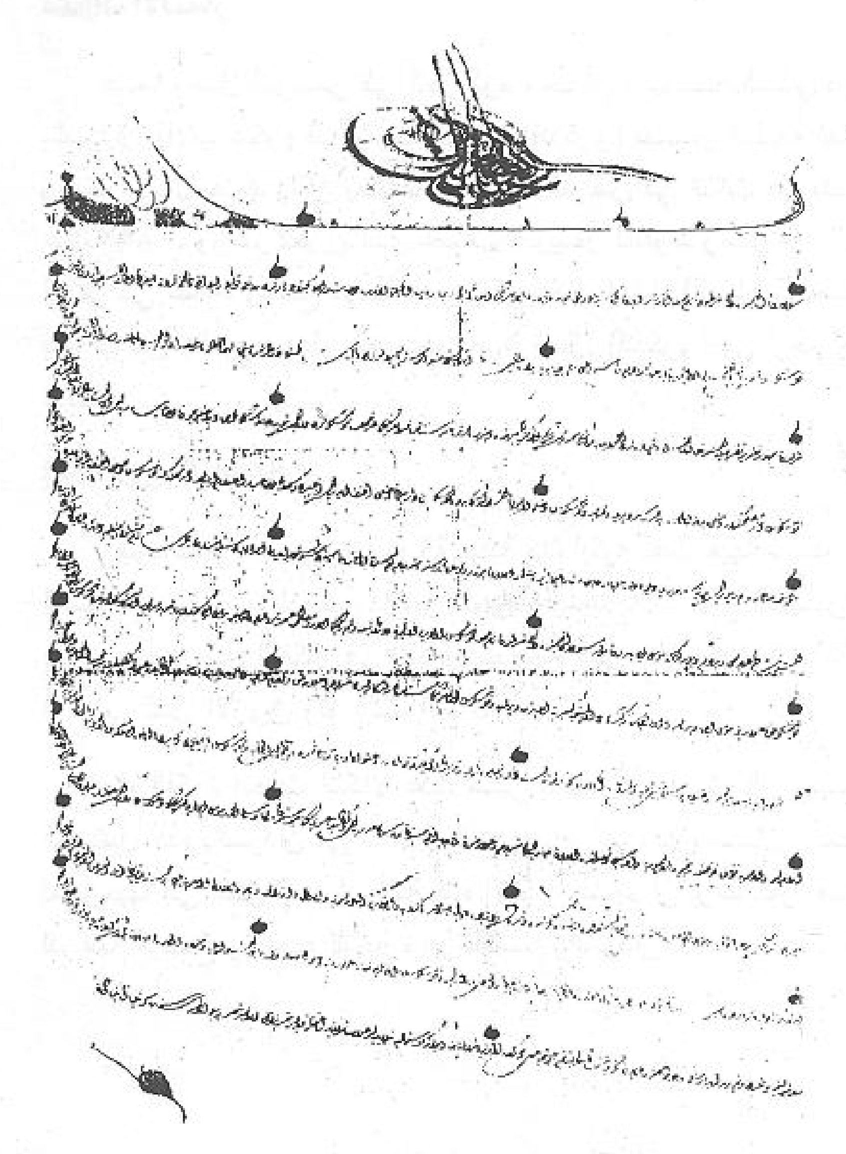
عمليات الانتشار:

عندما وصل كنوبلخر إلى الخرطوم وجد أن زميلـــه الـــذي تركـــه بالسودان (الأب فنكو) قد أنشأ كنيسة في (قندكرو) بيـــن قبيلـــة الباريـــا واستمر يعمل هناك ولكن بعد عام صرعه المرض في الثالث من ينـــاير عام ١٨٥٣. ورغم الحزن الذي أصاب كنوبلخر لسقوط زميلين له إلا أنه استمر في عمله، وافتتح محطة أخرى في مكان أسماه (الصليب المقـدس) بالقرب من شامبي، وعلى بعد ستين ميلا شمال (قندكرو) في أرض قبيلـة الدينكا.

إمبراطورية الهابسبيرج:

وجود تجار نمسويين، وحركة دينية كاثوليكية يعمل فيها عـــدد مـــن القسسة النمسويين والتابعين للإمبراطورية النمسوية شـــجع الإمـــبراطور (فرانس جوزيف) للتفكير في إنشاء مستعمرة على النيل، أو على الأقل في أراضي النيل الأزرق ولو بالشراء.

هذه الفكرة اتخذت أشكالا عدة، مـــن ضمنـــها اســـتعمال مســـتعمرة المستقبل هذه بالسودان في استقبال المجرمين، أسوة بارســـال بريطانيـــا لمجرميها إلى استراليا. ولدراسة هذه الأفكار عليهم أن يرســـلوا مندوبـــا لدراسة الوضع وتشجيع التجارة بين النمسا والسودان.



فرمان منتصف مارس ١٨٥٠ بموافقة السلطان التركي
عبد المجيد على تعيين مولر قنصلاً للنمسا بالخرطوم

في الرابع عشر من يناير ١٨٥٠ أصدر إمبراطور النمسا مرسوماً إمبراطورياً بتعيين نبيل شاب في السادسة والعشرين من عمره زار السودان من قبل وعاد إلى أوربا في عام ١٨٤٩، قنصلاً لوسط إفريقيا مقيماً في الخرطوم. ذلك الشاب هو (جوهانس ويليام فون مولر) على أن يساعده - كسكرتير له - الدكتور (كنستانتين رايتس).

هذا النبيل النمسوي الذي كان بالسودان في عام ١٨٤٧ وشجع الإمبراطور على فكرة المستعمرة، تم الحصول له على فرمان من الباب العالي لاعتماد قنصليته من السلطان عبد المجيد في منتصف مارس عام ١٨٥٠. بعد أيام تسلم خديوي مصر عباس باشا التعليمات العلية وفرمان تعيين البارون (مولر) للخرطوم.

هذا البارون بدل أن يذهب إلى الخرطوم، لتسلم أعباء منصبه الاستعماري، بدأ الطواف على القصور الأوربية لإقناعها بأهمية إيجاد مستعمرة للهابسبيرج بالسودان.

صحيفة (اشتتقارت) نشرت مقالة هاجمت فيها البارون بأنه أحضر ثلاثة من الإفريقيين من جنوب السودان في عام ١٨٤٧ إلى أوربا وعاملهم معاملة قاسية.

هذه المقالة قادت الإمبراطور النمساوي إلى تغيير رأيه في هذا البارون، الذي عين قنصلاً في الخرطوم، فجعل من نفسه سفيراً إلى قصور الأوربيين لمدة قاربت العام.

في الرابع من يناير عام ١٨٥١ قرر الإمبراطور تعيين موظفه بقنصليته بالإسكندرية (الدكتور كونستانتين رايتس الألماني) قنصلاً عاماً بالخرطوم.

هذا القنصل درس علوم الغابات، ثم تركها للفلسفة وتخرج من جامعة (فيزن).

عندما وصل إلى الخرطوم وجد نفسه أول نائب قنصل بالسودان، ولكن ليس الأول كممثل لدولة أوربية. قد سبقه في تمثيل فرنسا (جورجز ثيبو) منذ عام ١٨٣٩. وفي الحقيقة فإن كل الذين أتوا بعده أصبحوا نواب قناصل لبلادهم بالسودان المستعمر وتابعين لقناصلهم بالإسكندرية ويطلق عليهم قناصل مجازا.

أهم أعمال نائب القنصل النمساوي شملت:

١-دراسة موضوع المستعمرة وكيفية الحصول عليها ومكانها.

٢-إمكانية سجن المجرمين النمساويين بهذه المستعمرة.

٣-إمكانية إرسال مزارعين من النمسا للعمل في مزارع المستعمرة.

٤-إجبار مصر على حرية التجارة المنصوص عليها في اتفاقية عام ١٨٣٨.

٥-حماية الكنيسة الكاثوليكية الناشئة بالخرطوم ومدرستها وبقية أعمالها في الجهات الأخرى مستقبلا بالسودان.

المبنى الذي شيد ليبقى:

مباني الخرطوم كان أكثرها يعاني الضعف عموما. الطين والطوب الأخضر الذي كانت تبنى منه، وخصوصا طين الخرطوم، هو أسوأ المواد التي يمكن أن تستعمل في البناء. إنها مبان لا تحتمل الأمطار، وخصوصا إذا تلاشت الطبقة الخارجية التي تتكون من روث البهائم والتراب والقش..

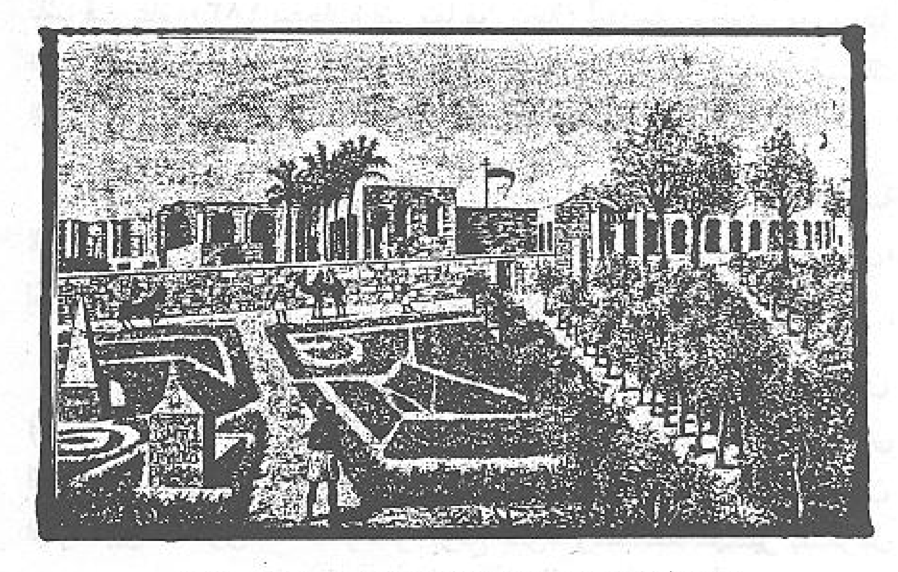
القصر الجمهوري أو ما كان يسمى (قصر الحكمدار) كان قد بناه خورشيد باشا في عام ١٨٣٠ بحجارة أتى بها من شمال أمدرمان وطوب من سوبا القديمة.. أيضا من المباني التي بقيت بعض الوقت جامع أرباب العقائد الذي جدد مبانيه خورشيد باشا أيضا بطوب أتى به من سوبا.

هذه المرة فإن المال الذي أحضر من تبرعات الأوربيين مع العمالة الماهرة التي أتت مع المال، سوف تقدم للخرطوم مبنى من نوع خاص، لكي يكون مقرا لأكبر كنيسة بالسودان ومدرسة.

وضع حجر الأساس في يناير ١٨٥٤. العمال الأجانب كانوا أولا من (تسكني) ولكن أضيف إليهم عمال بناء من (تيرول). الذي أشرف على العمل كان الأب جوزيف فوستتر الذي درس الرسم الهندسي. اشترك من السودانيين خمسون عاملا، وقاموا برفع المواد وخلط الجير بالرمل وتخميره.

أحضر الإيطاليون الحجر من أمدرمان - غرب قصر الشباب والأطفال اليوم - الجير توصلوا إليه بعد عناء من منطقة شرق الخرطوم على النيل الأزرق.

الطوب صنعه لهم لأول مرة (بيترو أقاتي) بعد زوال ممالك النوبة. صنعة أولا في أمدرمان ولكنه فيما بعد فضل عليه طوبا صنعه في سوبا. هذا البناء ولد في مدينة بيزا المائلة البرج، في عام ١٨٢٨. بقي بيترو في السودان فيما بعد وبني بيت الخليفة في أمدرمان وتزوج سودانية ومات في عام ١٩١٨ رافضا الرجوع إلى إيطاليا.



إرسالية الخرطوم وكنيستها، افتتحت المباني الجديدة التي بقيت حتى الآن، عام ١٨٥٦، وأضيف إليها قسم الراهبات في عام ١٨٧٢ (قبرا رايلو وكمبوني إلى يسار الحديقة)

الأرض التي شملها البناء طولها من الشرق إلى الغرب ثلاثمائة وأربعة عشر قدما، أما العرض من الجنوب إلى الشمال فقد كان ثلاثين قدما.

عندما انتهت هذه المباني في يوليو عام ١٨٥٦، كانت تشمل سكن القسسة - سبع غرف ومطبخا وغرفة أكل - ومدرسة ومخازنا وغرفتين شرق المبنى تعملان كنيسة وفرندة مستديرة المداخل.

كلفت هذه المباني حتى هذه المرحلة نصف مليون فرنك فرنسي. هذا وقد أضيفت إليها غرف أخرى للراهبات بناها (كمبوني) واكتملت في التاسع من يوتيو عام ١٨٧٤. كانت مساحة الإضافة واحدا وستين مترا طولا وخمسة أمتار ونصفا عرضا في الجانب الغربي، وكان بناؤها بالطوب الأحمر والجير والرمل.

الخرطوم والكنيسة الكاثوليكية:

من السهل استنتاج المكانة العالية التي لقيتها مباني الكنيسة وتأثيرها النفسي على عمل القسسة والمجموعات التي تريد المسيحية أن تعمل بينها. إنها أصبحت المبنى الثاني في الخرطوم من حيث جمال البناء، والمبنى الأول من حيث قوة بنائه وصلابته كما برهن على ذلك صموده من عام ١٨٥٦ وإلى يومنا هذا. إن الخرطوم حتى ذلك العهد، وبعده بعدة سنين، ظلت تعيش في بيوت الطين، وحواشيها في بيوت القش. لذلك لم يكن من المستغرب أن تنهار نصف بيوت الخرطوم في أمطار عام ١٨٦٦، إلى الحد الذي جعل والي مصر يفكر في نقل العاصمة إلى توتي. يظهر ذلك في الخطاب الذي أرسله والي مصر إلى الحكمدار في السودان حيث يقول: (بوصول إفادته بتاريخ ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٣، المتضمن نزول الأمطار الغزيرة في ليلة الثلاثاء الموافق ٢٥ ربيع الأول

سنة ١٢٨٣، وإحداث أضرار بناحية الخرطوم ولكن بسبب أنـــها عمــت جميع أنحاء السودان بالمأمول بإذن الله زيـــادة المحصـــولات.. وصـــل مسامعه الكريمة بأن موقع بلدة الخرطوم منحطة ورطبة من جهة ومـــن جهة أخرى فإن مساكنها مبنية بالطوب الأخضر بعضها، والبعض الآخر من القش ولذلك يرى نقلها من موقعها الحالي إلى الجزيرة التـــي أمامــها تدريجيا كلما سنحت لذلك الفرصة).

إن أرض الخرطوم كانت محددة غربا بالمقرن، وفي هذه الجهة كان النيل يغمر حتى حديقة الحيوان الحالية في ارتفاعه. من ناحية الشمال فإن النيل الأزرق يمنعها من التوسع شمالا. من الشرق فإن المواقع العسـكرية كانت تحدد تمددها بمنطقة كبري النيل الأزرق الحالي. من الجنوب فـــإن منطقة مستشفى الخرطوم الحالي كان مقابر للمسلمين، وداخليــــة كـــرار (غرب كلية طب جامعة الخرطوم) تشكل مقابر المسيحيين التي أنشــأها الأب مونتوري.

في هذا الحيز الضيق كانت تقع أحياء الخرطوم: حي الحكمدارية يقع على ضفاف النيل الأزرق وحتى شارع الجامعة الحالي. بهذا الحي القصر والحكمدارية والشونة والترسانة الجديدة وبعض القنصليات.

إلى الجنوب الغربي منه حي المسجد الذي يقع حول مسجد أربـــاب العقائد وبالقرب من الكنيسة الجديدة. هذا الحي كان أهم حي بالمدينة حيث السوق الإفرنجي والعربي، وكل واحد منهما يتكون من أربعة شوارع.

إلى الجنوب من السوق العربي حي سلامة الباشا، ويسكنه المواطنون الذين هم أقل حظا من سكان حي المسجد، أهم سكانه الدناقلة والنوبة (نوبة شمال السودان).

إلى الشرق من سلامة الباشا حي النوبة، ويسكنه القادمون من جبال النوبة، والمتقاعدون من خدمة الجيش.

بين حي النوبة وحي الترس (الترس الذي أقيم لحماية المدينة من فيضان النيل الأبيض وسكن حوله مواطنون وأسموه بحي الترس) يقع أفقر الأحياء وهو حي (هبوب ضرباني).

وفي النهاية إلى الشرق من حي الحكمدارية، حي الكارة الذي كان يسكنه العسكر المصريون والسودانيون، وحي الطبجية ويسكنه رجال المدفعية بالجيش. وأخيرا حي بري المحس الذي ظل هناك إلى أن قام الإنجليز بترحيل سكانه إلى البراري الحالية سنة ١٩٠٠، وأقاموا في مكانه سكنات الجيش الإنجليزي.

في وسط المدينة حيان صغيران، الأول مركزه المحطة الوسطى وكان يسمى (فريق السدرات)، الحي الثاني هو (فريق سكلت) ومركزه في مكان البنك التجاري السوداني الحالي.

شاطئ النيل كان مليئا بالحدائق (الجناين). فإذا بدأنا من الغرب إلى الشرق، فسنجد أن منتزه المقرن العائلي الحالي كان جنينة العظيمي، تليها جنينة المعلم جمعة، فجنينة الدمشاوي ثم الأوقاف – مكان قصر الصداقة الحالي. إلى الجنوب قليلا جنينة الحاج أحمد الجركوك، إنها كانت محاذية لحلة الدرايسة بالمقرن – مكان الأسكله – وفي تلك الحلة – أي الحي كانت للجركوك خلوة يدرس بها ثلاثمائة وستون طالبا وسبع طالبات، بينهن ثلاث من جزيرة توتي. ثم جنينة النور الخبير التي آلت إليه من (الروساب) مع جزيرة ود دكيم (التي تحت كبري النيل الأبيض الحالي). هذه الجزيرة أهداها فيما بعد (ود أبو الروس) ناظر الخط، إلى الحكمدار موسى باشا

حمدي الذي حكم السودان بين عامي ١٨٦٢-١٨٦٥. تلي ذلك جنينة أبي معلا وتقع جنوب الأسكله. جنينة عامر كانت تقع جنوب جنينة الأوقاف. جنينة إبراهيم خليل باخوس كانت في مكان حديقة الحيوان التي أخليت الآن من حيواناتها.. جنينة الست أخت بولس كانت في مكان الفندق الكبير. تليها جنينة أولاد العقاد، في مكان الكنيسة القبطية اليوم. تليها مباشرة جنينة (ماركي) وقد كانت ملاصقة أيضا لأسكلة بواخر ومخازن الحكم التركي التي كانت في مكان منزل السيد علي الميرغني.

حديقة الكنيسة الكاثوليكية بالطبع كانت تابعة لمباني الكنيسة، وكانت هذه الحديقة تضم مكاتب الري المصري ومنزل مفتش الري المصري وجزءا كبيرا من مكاتب النائب العام اليوم.

جنينة القنصل عاذر كانت في مكان وزارة العدل الحالية. جنينة أخرى للأوقاف كانت في مكان مباني مجلس الوزراء الأول بعد الاستقلال. جنينة البوستة كانت في مكان وزارة الداخلية الحالية.

بعد سراي الحكمدار - القصر الجمهوري حاليا - جنينة بابليك، في مكان إسطبلات القصر القديم. تليها شرق وزارة الأشغال جنينة الفكي قرة العينين. وعلى ما يبدو فإن أراضي هذه المنطقة كانت للمحس.

في الجزء الشمالي من وزارة الخارجية كانت تقع جنينة الشيخ قسم السيد صاحب السبيل المشهور. للفكي قرة العينين جنينة أخرى في مكان الكاثدرائية الكاثوليكية ومدرستها.

في مكان نادي الأطباء كانت تقع جنينة محمد العباسي. جنينة فاطمة بنت الباشا كانت في مكان منزل سلاطين. تليها جنينة كرم الله، فجنينة المستشفى وهي في مكان وزارة الصحة الحالية.

جنينة الفولي في مكان كلية الهندسة بجامعة الخرطوم، وجنينة الحاج البدري تأخذ جزء من جامعة الخرطوم.

كانت بالخرطوم أيضا عشر مترات (المترة هي بئر واسعة وليست بعيدة عن النهر لذلك فهي ليست عميقة، وبها ساقية ترفع المياه إلى الأرض لزراعتها.. السوداني يجمع كلمة مترة على مترات ومتر).

إنتاج المترات كان كبيرا من الليمون واللارنج والموز والتين والتمور والحناء. أصحاب هذه المترات كانوا:

١-جورج بك الحكيم: وكانت في مكان الكنيسة الإنجليزية التي ضمت للقصر الجمهوري لأسباب أمنية.

٢-عويضه بك: وكانت في الجزء الغربي من الميدان الذي يقع جنوب القصر الجمهوري.

٣-المدير أبو سن: بجوار بنك الخرطوم على شارع الجامعة.

٤-عبد السلام الشامي: حلة السدرات، وهي المحطة الوسطى.

٥-أبو السعود: شمال جامع الخرطوم.

٦-المفتي شاكر: السوق الإفرنجي منطقة رئاسة بنك النيلين.

٧-بابكر الجركوك: مكان الجمعية التشريعية سابقا، والآن مجلس ولاية الخرطوم ومحكمة استئناف الولاية.

٨-أبو دلونه: أمام وزارة العدل.

٩-حسن مسمار: غرب ميدان الأمم المتحدة مباشرة.

١٠-غطاس: في الجزء الجنوبي من وزارة الخارجية الحالية.

كنيسة الأقباط بالخرطوم:

على ما يبدو أن استمرار الكاثوليك في أعمالهم الدينية في السودان قد أثار حفيظة بقية المناهج الدينية المسيحية التي لها تبع في السودان.

رغم أن الأقباط بدأوا الدخول إلى السودان للعمل منذ الثلاثينيات إلا أن الكنيسة المصرية لم تدخل إلى السودان للعمل فيه إلا بعد بداية الخمسينيات. إن القدوم إلى السودان كان مصدر خوف لكثير من المصريين مسلميهم ومسيحييهم.

هذا بالطبع لا ينكر على هذه الكنيسة تاريخها القديم في البلاد. الديانة المسيحية في النوبة تبعت منها دولتان – نبته وعلوه – الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أولا ثم لحقت بهما المقرة. وهم اليوم كثيرو الاعتزاز بأعمال الفرقة البولندية الأثرية (١٩٦١-١٩٦٤) واكتشافها لكاثدرائية فرس التي أقيمت فوق قصر الملك وبها الغرفة الجنوبية من الهيكل المعروفة بغرفة المعمدان، حيث صورة ضخمة للمسيح وعلى جانبيه ملاكان يركعان له، وعلى الجانب الأيسر قائمة الأساقفة الذين خدموا في مدينة فرس (الينبوع الحي صفحة ٢٨ اليوبيل الفضي للأنبا شنوده الثالث).

على كل أقاموا أول وآخر كنيسة لهم خلال الحكم التركي في الجانب الشرقي من مباني الإدارة المركزية الحالية بعد إلحاح الأقباط الذين قدموا إلى السودان للعمل في الإدارة المصرية في أقسام المحاسبة. عين لهم البابا بطرس أول أسقف للسودان يدعى الأنبا دميانوس. كان دميانوس راهبا بدير الأنبا أنطونيوس، فأسس كنيسة الخرطوم وبقي بها إلى أن توفي ودفن بها. عين البابا بطرس الجاولي القس جرجس الأنطوني خلفا له وأسماه الأنبا غبريال. استطاع هذا الأنبا مقاومة أمراض السودان

وعاصر ثلاثة بابوات بالكنيسة المصرية هم: بطرس الجاولي، وكيرلس الرابع وديمتريوس الثاني.

هذا وقد دفن الأنبا غبريال أيضا بالخرطوم. لم يجد بعد ذلك البابا كيرلس الخامس شخصا يقبل العمل بالسودان إلا في السابع عشر من أكتوبر عام ١٨٧٨، حينما استطاع تعيين الأنبا مكاريوس أسقفا على السودان. بقي الأخير بالسودان إلى أن اشتدت الثورة المهدية، فقفل كنيسته وترك السودان مع قسسته في عام ١٨٨٤. إن مكاريوس هذا قد مات في الأول من نوفمبر عام ١٨٩٦ ودفن في دير أبي سيفين بمصر القديمة.

كنيسة البروتستانت:

الدعاية التي بثها كنوبلخر في أوربا عن إمكانيات التبشير الضخمة بالسودان، جعلت كنيسة بروسيا البروتستانية تأتي على عجل وتنشئ بسرعة مذهلة كنيسة وديرا ومدرسة في بداية الخمسينيات من الحجر الرملي والطين في الجانب الغربي من المحطة الوسطى بالخرطوم بين القنصلية المصرية والشارع الذي يقع شرقها. ولكن بنفس السرعة أقفلوا كل أعمالهم وباعوا ممتلكاتهم وهربوا من السودان بعد موت اثنين من رهبانهم بالملاريا. بقية آثارهم لا زالت باقية في حيطان المتاجر التي تقع شرق القنصلية المصرية بالخرطوم وتمتد من الشمال إلى الجنوب وأمامها فرندة بطول المتاجر.

القنصلية النمسوية بالخرطوم:

بعد وصول القنصل النمسوي (كونستانتين رايتز) إلى الخرطوم في الحادي والعشرين من مارس ١٨٥١ بدأ مباشرة في البحث عن مكان مناسب لإنشاء قنصلية. اهتدى إلى ذلك سريعا بشراء منزل كان يملكه

رجل فرنسي يدعى (برن رولت) ويقع في داخل مباني النائب العام الحالية. ثمن المنزل بمبانيه ألف وثلاثمائة ريال فوشلي - أي ماريا تريزا النمساوي. قام بعمليات الفرش والترميم سريعا جدا. وبعد وصوله بتسعة أيام فقط، دعى سكان الخرطوم من الأوروبيين إلى حفل رفع العلم النمسوي على القنصلية. وفي اليوم الثاني كان يجد العمل في إقناع الحكمدار بإنهاء احتكار التجارة بالنيل الأبيض، لأنها منافية لاتفاقية عام ١٨٣٨ المعقودة بين الباب العالي والقوى الأوروبية بخصوص حرية التجارة.

بالإضافة إلى مشروع المستعمرة كان يفكر في تصدير المطاط السوداني إلى بلاده، وفي حل المشاكل التي قد تعترض التبشير الكاثوليكي بالسودان. هذه هي الأعباء التي أوكلت حكومة النمسا قنصليتها بالخرطوم القيام بها. إن النمسا اقتنعت، تماما أن الكنيسة الكاثوليكية تستطيع أن تسلمها مستعمرة في السودان إذا وجدت الدعم الكافي من القنصلية. وهذا - في رأيهم - أفضل من الحصول عليها بإرسال جيوش والقيام بحروب تقتل أبناءهم، كما فعلت الدول الأوروبية الأخرى.

ولكي يقنع القنصل هذا بلاده بإمكانية الملاحة على نهر النيل حتى الإسكندرية، اشترى قاربين من ماله الخاص وشحنهما بمائتي حيوان. أبحر القاربان يوم ٢٣ أغسطس ١٨٥٢ ووصلا إلى الإسكندرية بعد معاناة ضخمة، في السابع عشر من أكتوبر من نفس العام. هذه الحيوانات أرسلت من الإسكندرية إلى حديقة حيوان قصر الشنبرون الإمبراطوري في فينا.

ضحايا التبشير:

بين عامي ١٨٥١-١٨٥٧ مات نصف المبشرين الكاثوليك الذين دخلوا السودان. كان من الطبيعي أن يتوقف سيل القادمين للدعوة

المسيحية الكاثوليكية. ولكن الذي حدث كان العكس. كانت الأعداد تـزداد باستمرار، والمجموعة التي في خط المواجهة بالسودان تستمر في طلـب المزيد من المال والرجال وفيما بعد أضافوا المبشرات.

في نهاية عام ١٨٥٧ رجع كالعادة الأب كنوبلخر إلى أوربا لكي يعيـد مطالبه.. المال وأضاف النساء. في طريقه إلى أوربا التقى في مدينة أسـوان بمجموعة من القادمين تتكون من القسسـة: بلـترام، دال بسـكو، ميلتـو، أوليبوني، دانيال كمبوني والشماس زيلي. رحب بهم هناك واسـتمروا فـي رحلتهم إلى الخرطوم حيث وصلوها في الثامن من يناير عام ١٨٥٨.

التبشير بالدينكاوية:

من هذه المجموعة بقي الأب دال بوسـكو وحـده فـي كاثدرائيـة الخرطوم التي أسميت (إرسالية إفريقيا الوسطى)، وتقـدم البقيـة بـالنيل الأبيض إلى مركز (الصليب المقدس) مع الأب كيرشنر.

في أرض الدينكا جمعوا ألفي كلمة دينكاوية وكتبوها في قاموس، ثـم كتبوا كتاب تبشير باللغة الدينكاوية التي جمعوها، يتخذ أسـلوب السـؤال والجواب. إن القسسة قد قضوا كل وقتهم بين الدينكا في نشر المسيحية.

لم يستمر الأمر طويلا دون ضحايا بأرض الدينكا. ففـي السـادس والعشرين من مارس ١٨٥٨ سقط الأب أوليبوني. الأب دانيال كمبوني - الذي تعتبره الكنيسة الكاثوليكية حصانها الأشهب - أقعدته حمى الملاريـا تماما عن الحركة فأعيد إلى ايطاليا.

أتباع القديس فرانسس:

على ما يبدو أن الموت والطقس العدائي بالسودان قاد الكنيسة إلى أن

تطلب من أتباع القديس فرانسس (الفرانسسكيين) وهم كـــاثوليك أيضـــا، الاشتراك في التبشير بالسودان. هذه المجموعة من القسسة عراة الرأس، اللابسين شتاء وصيفا صنادل الجلد البدائية وفوق أجسادهم ما اخشوشـــن من جبب الصوف، قدمت أول دفعة منهم في الثاني عشر من سبتمبر عام ١٨٦١. وسريعا كانت تسمع صلاة قديسهم الشهيرة من ثلاثة وثلاثين قسا في الشلال والخرطوم وما جاورهما، إنها تقرأ:

رب، اجعلني آلية لسلامك

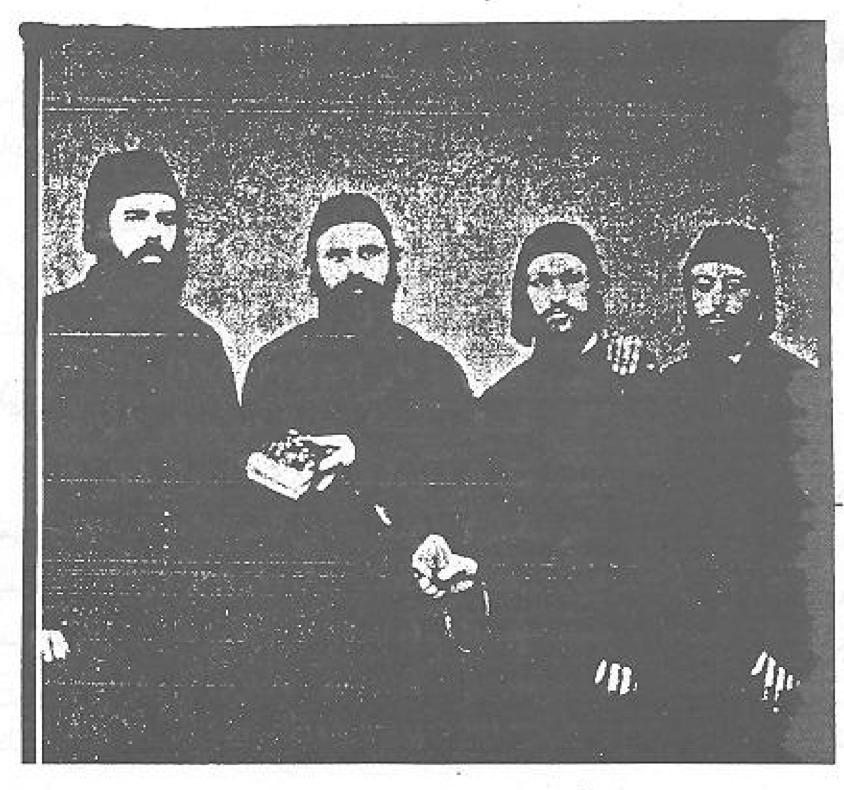
حيث الكراهية دعني أزرع المحبة

وحيث الشك أزرع الإيمان

وتنتهي:

إنه في عفونا أن يعفي عنا

وفي موتنا أن نولد للحياة الأبدية.



بعض من الآباء الفرانسسكپين الذي تعاونوا مع كمبوني

من اليسار إلى اليمين: الأب روليري، الأب كمبوني، الأب كارشيريري والأب فرانسيسكيني

هذا العدد الكبير من القسسة رفع الروح المعنوية عند الباقين السابقين، ولكن إلى حين.. وحتى مع ارتفاع عدد أتباع فرانسيس إلى ثمانية وخمسين، فإن اثنين وعشرين منهم ماتوا في ظرف سنتين.

إذا أضفنا إلى هؤلاء من مات من الأوائل فقد بلغ عدد الضحايا حتى عام ١٨٦٣ ستة وأربعين قسا، بخلاف الذين أسرعوا راجعين عندما ازدادت عللهم.

دانيال كمبوني:

دانيال كمبوني أحد أكثر الذين استطاعوا مقاومة جو السودان وأمراضه، ولد في الخامس عشر من مارس عام ١٨٣١، بقرية تدعى (ليمونه) على بحيرة قاردا بسهول إيطاليا الشمالية. عاش هذا الطفل في كنف عائلة تعمل بالزراعة ومتدينة. سريعا لحق بتدينهم وركع لتمثال مريم العذراء بمنزله. وما أكثر ما وجده العائدون من مزارعهم وهو يعتلي ظهر صخرة أو مقعدا ويخطب في الناس متوهما أنه قس كنيسة أبرشيتهم.

ذهب إلى مدرسة قريته الابتدائية، وبعدها التحق بكلية (دون مازا) للدراسات الفقهية.

أول مرة سمع فيها عن السودان والتبشير فيه كان في عام ١٨٤٩، عندما عاد الأب فنكو إلى إيطاليا من السودان وتحدث إلى طلبة كلية (دون مازا) عن العمل بالسودان، وخطورة طقسه وأمراضه، وأهمية التبشير فيه. دانيال ابن الثمانية عشر عاما مع قلة من زملائه تقدموا إلى مدير الكلية طالبين الالتحاق بالعمل بالسودان بعد تخرجهم.

في الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٨٥٤ نصب دانيال كمبوني قسا. وفي الأول من سبتمبر عام ١٨٥٧ كان يودع في بقية اخوته السبعة وأمه متوجها إلى إفريقيا للتبشير فيها. وفي العاشر من سبتمبر كان يركب الباخرة من ميناء (تريست) المزدحم، متوجها إلى الخرطوم، حيث أرسل مباشرة إلى مركز الصليب المقدس. بقي كمبوني - كما أسلفت - عاما هناك، ورغم قوة جسمه ومناعته، اضطر بعد العام الأول إلى الرجوع إلى أوربا مستشفيا.

التبشير في إفريقيا للإفريقيين:

المرض وصعوبة الحياة أقنعت هذا القس الشاب بأن يصل إلى نظرية جديدة للتعامل مع الظروف الإفريقية القاسية، بأن يعلم مجموعة من الرساليين والرساليات الإفريقيين القيام بعملية التبشير. ورغم أن هذه النظرية هي فكرة أكثر من كونها فعلا، إلا أنه بدأ الدعاية لها.

روج كمبوني لفكرته التي ترمي إلى إنشاء مدارس لاهوتية لتدريس الإفريقيين والإفريقيات عمليات التدريس والتبشير على أن يتم ذلك في دول مجاورة - كمصر مثلا - حيث الجو مناسب للإفريقيين والقادمين من أوربا لتدريسهم وتنصيرهم. حتى إذا رجع الإفريقيون إلى بلادهم أمكنهم التبشيرومقاومة الجو الذي نشأوا فيه.

عرض كمبوني فكرته على جميع المحافل الدينية والطوعية والتبشيرية، وأقنع البابا بولس التاسع بفكرته. ثم قضى عشرة أعوام بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٧٠ يقابل الملوك والحكام بأوربا، ويعقد المؤتمرات والندوات وينشئ في اللجان التي قامت بترجمة أقواله إلى جميع اللغات الأوربية.

في فرنسا تعرف على الكاردينال (ماسايا) القاصد الرسولي إلى

أثيوبيا، فقدمه الأخير إلى كل أصحاب النفوذ في فرنسا.

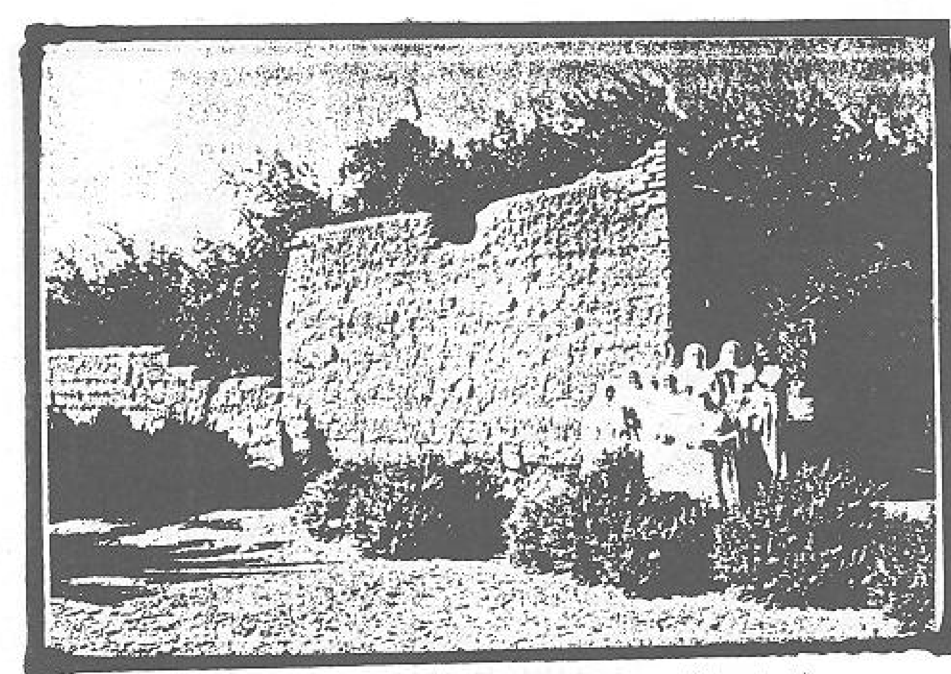
في إيطاليا الكاردينال (كانوسا) قدمه إلى جميع مطارنة إيطاليا، ثم فيما بعد قدمه إلى كل مطارنة مجلس الفاتيكان.

في النمسا ساعدته كثيرا جمعية (مريم) التي أنشأها الدعاة الأوائل. ولكن لسوء حظه فإن مجلس الفاتيكان قد تم إيقافه نتيجة الحرب التي اشتعلت في العشرين من سبتمبر عام ١٨٧٠.

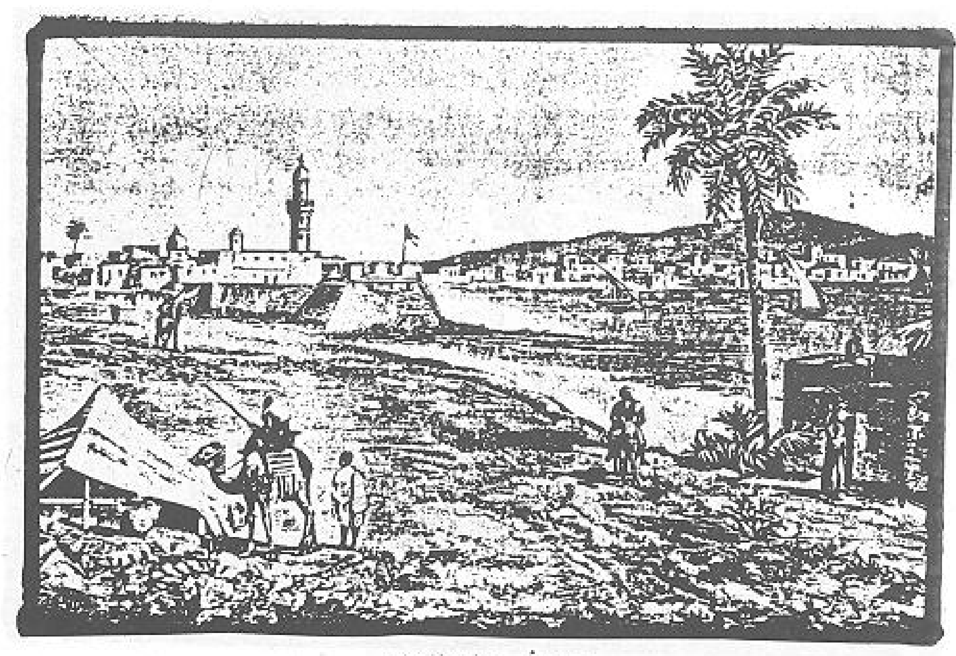
المحاولة الثالثة:

في الحادي عشر من يونيو عام ١٨٧٢ عين البابا دانيال كمبوني مساعد مطران لإفريقيا الوسطى بالخرطوم اعترافا بخطته التي أقنع بها رجال الدين والملوك بكل القارة الأوربية، من موسكو إلى مدريد. وعليه استمر في تنفيذ الجديد من برامجه وتدعيم القديم. كان كمبوني قد أنشأ معهدين بالقاهرة في عام ١٨٦٧ واحدا للرجال والثاني للنساء. أيضا استطاع استقدام إفريقيين وإفريقيات من السودان للتدريب فيهما. وقد فتح أيضا معهدين للقسسة والشماسين والراهبات الذين سيكونون كادر المعلمين والمعلمات للمعهدين، ولمعاهد أخرى نوى إقامتها في الشلال وغيره. بعد ذلك هرع إلى الخرطوم مع مجموعة جديدة من القسسة فوصلها في الرابع من مايو عام ١٨٧٣. وبهذه المجموعة الجديدة افتتح مراكز تبشير أخرى في أسوان، وادي حلفا، بربر، سواكن، الأبيض والدلنج. وفي كل هذه المراكز بنى مساكن القسسة وبعض المدارس الصناعية وأماكن للعبادة.

في الملبس بالقرب من الأبيض أنشأ مزرعة تجريبية وكنيسة، وفي الأبيض والخرطوم أنشأ أول مدرستين للبنات في السودان.



حيطان إرسالية بربر التي بناها كمبوني (الصورة أخذت عام ١٩٧٩)



بربر في عام ١٨٧٨

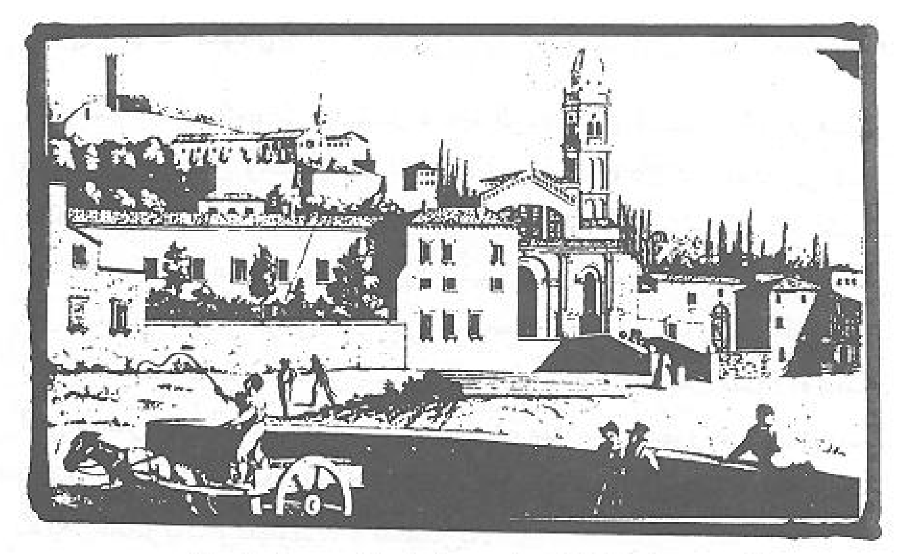
جمعية أمهات السودان:

نشاط الأب كمبوني لم يشمل دعوة الرجال من القسسة والرهبان للعمل في السودان ومنازلة أمراضه وحرارته فقط، بل كان يفكر في استقطاب الراهبات للقدوم والعمل بين النساء. إن الفكرة لم تكن فكرة تقليدية يمكن عرضها وتوقع مردود منها، ولكن ربما كانت هذه هي إحدى مقومات شخصية كمبوني. كل شيء بالنسبة له كان ممكنا. دعى فتيات إيطاليا للانخراط في التبشير الديني بالسودان، غير متجاهل لذكر الأخطار التي سيتعرضن لها في صحارى عليهن قطعها على ظهور جمال لم يرينها في حياتهن، وفي حرارة لا قبل لهن بها، وفي مناخ يحمل قتلة ثلاثة: الملاريا.. والتيفويد.. والدسنتاريا.

بالطبع لن يغب عن الذكر أن اللاتي كان يعرض عليهن الخدمة في السودان كن ممن سقين من الفكر المسيحي ومتأثرات بدعوة المسيح (ليس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر، ويدوم ثمركم. لكي يعطيكم الأب كل ما طلبتم باسمي. إنجيل يوحنا، الإصحاح١٥، العدد ١٦).

وعلى ما يبدو أن كمبوني لم يقرع في طبل أجوف، فتقدمت في عام ١٨٧٢ ثلاث فتيات متبرعات للعمل في إفريقيا الوسطى بين أهالي السودان. ومن الممكن تصور الذهول الذي أصاب عائلات المتقدمات، والحواجب التي ارتفعت من قبل عائلاتهن. ومن غريب الصدف أن تشترك الثلاث فتيات في أسمائهن الأولى وهن ماريا كاسبي، ماريا اسكندولا وماريا كولبي.

وبالماريات الثلاث تم إنشاء أول جمعية أسمت نفسها (جمعية الراهبات أمهات السودان).



على يمين كنيسة القديسة مريم ان أورقانو بمدينة فيرونا الإيطالية، أسس كمبوني معهد الراهبات سنة ١٨٧٢

وفي دير أبيض الطلاء في مدينة فيرونا الإيطالية يتكون من طابقين وبرج معبده الخماسي الشكل، وأرضه التي تحجبها عن الرؤيا حديقة عالية الأشجار، كانت رئيسة الدير تستقبل القادمات للمعهد الجديد الذي أنشأه كمبوني لتدريب الفتيات الإفريقيات للقيم بالتبشير بالسودان. مكان المعهد الأول كان في (مونتوريو فيرونيز) عندما افتتح في الثامن من يناير عام ١٨٧٢، ولكن سريعا نقل إلى جوار كنيسة (سنت ماري إن أورقانو)، أسمي المعهد (معهد التقيات الإفريقيات) ولكنه عرف باسم (معهد نقريزيا). في نفس العام التحقت به (ماري بلروني) التي أصبحت مديرة له سبعة وعشرين عاما. وبعد مرور قرن على افتتاح الدير بلغ اللاتي درسن فيه ألفين ومائتي راهبة عمل أكثرهن بالسودان، والبقية في أنحاء متفرقة بإفريقيا والأمريكتين. بعضهن كن إيطاليات وبعضهن فرنسيات، وشق آخر جاء من سوريا ولبنان.



الراهبة ماريا بلزوني أول رئيسة لجمعية
(أمهات إفريقيا التقيات) التي أنشأها كمبوني.

مطران إفريقيا الوسطى:

لكل النشاط التبشيري الذي قام به دانيال كمبوني في السودان، ولرحلته إلى أوربا لشرح أعماله ومشاريعه للبابا ولقادة الفاتيكان، ولنجاحه في إقناع رجال البر لدعمه بالمال، ولتمكنه من إقناع عدد كبير من المبشرين والمبشرات للعمل في مناطق إفريقيا الصعبة، عينه البابا في الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٧٧ أول مطران للكنيسة الكاثوليكية بالسودان. وفي يوم قليل الشمس، كثير البرد - الخامس عشر من ديسمبر عام ١٨٧٧ - كانت الباخرة (أريب) تقف على رصيف ميناء نابولي الإيطالي وفوقها المطران كمبوني بعيونه الواسعة، وجسمه الممتلئ ولحيته المستديرة وعلى رأسه كوفية صوفية ملونة، يقف وحوله عشرة من القساوسة وخمس من الراهبات الشابات وهن: تريزا غريقوليني، جوزفينا اسكندولا، فيتوريا باغانيني، ماريا كاسبي وكنستا كورسي.

وقف الستة عشر رجلا وامرأة يشيرون بأيديهم مودعين زملاءهم وأهلهم وعشيرتهم الذين تلفحوا بالملابس الثقيلة، وخلفهم سهول نابولي التي غطتها طبقة من الجليد السميك. أما ما كان يختلج في صدر كل مودع ومودعة فقد كان شعورا مكسوا بخوف قوي في أن هذا سيكون الوداع الأخير لهذه المجموعة.

في الثامن والعشرين من يناير عام ١٨٧٨، وبعد استقبالات متعددة بواسطة رجال الكنائس والخديو والمكتشف المعروف (هنري ستانلي) كانوا يودعون القاهرة في رحلتهم جنوبا.

الأخبار المزعجة:

ما كادوا يصلون إلى أسيوط حتى سمعوا آخر أخبار إيطاليا.. مـــات البابا بولس التاسع. عندما وصلوا إلى أسوان التقـــوا الجـــنرال غـــردون متوجها إلى مصر وحاملا لهم أنباء المجاعة التي ضربت البلاد بسبب قلة الأمطار وسوء الإدارة التى نهبت جميع إنتاج السودان الزراعي من السنة الفائتة.

بعد رحلة مزعجة عبر صحراء العتمور، غشيها العطش والإرهـــاق والحمى، وهم على ظهور جمال أكثرهم رآها لأول مرة، وصلـــوا إلـــى بربر في السادس والعشرين من مارس ١٨٧٨. نزلوا في منزل من طين كان قد بناه كمبوني قبل عامين لكي يكون إرسالية.

في الثاني عشر من أبريل كانوا بالخرطوم، لكي يجدوا أن الذي حدث كان أضعاف ما صوره غردون لهم. إن جزء كبيرا من سكان الخرطـــوم والبلاد قد قضى نحبه جوعا، وبقيتهم تعرضوا لمحاق عظيم.

الانتشار:

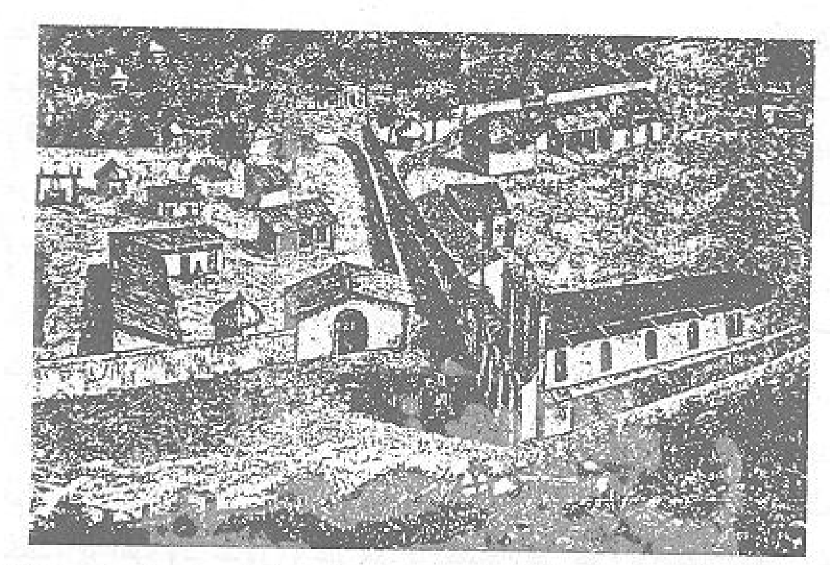
ما كاد يصل هذا الفوج إلى الخرطوم، حتى أعقبه فوج آخـــر مـــن المبشرين والمبشرات، فتقدم الفوج الأول إلى الأبيض والملبس والدلنـــج. إن الجفاف في تلك المناطق رغم سوئه من الناحية الاقتصادية والصحيـــة والاجتماعية، إلا أنه خدم التبشير في تلك المناطق. فالجائع قد يكون أسهل انقيادا لفكرة دينية تخالف وثنيته، طالما كانت تسهل عليه إلى حد ما سبل العيش ومقاومة الموت.

من أكثر المناطق التي تأثرت بالجفاف مدينة الأبيـــض التـــي كـــانت

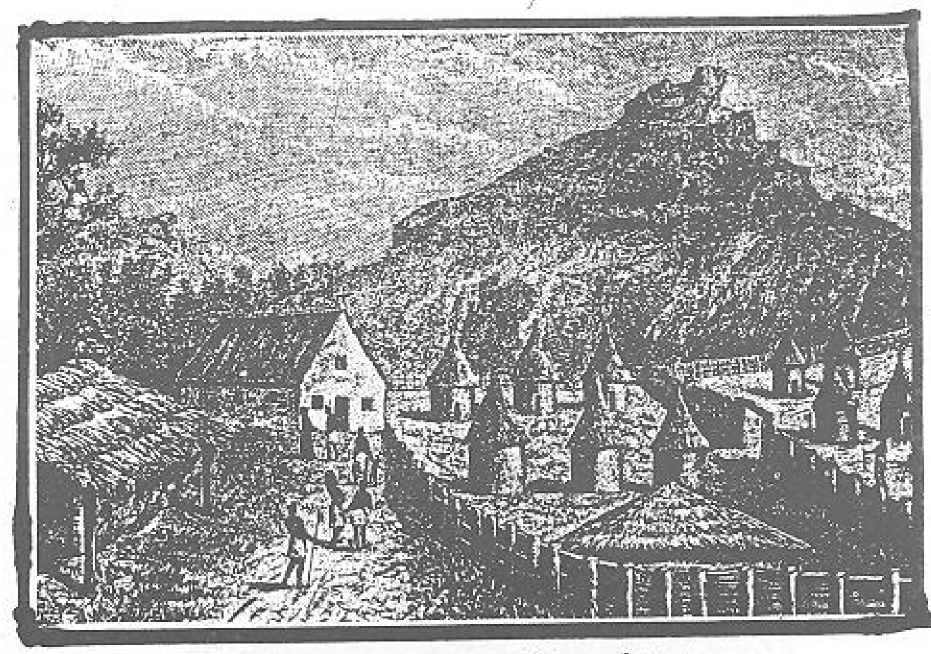
عاصمة السودان الاقتصادية. سكانها بلغوا مائة ألف نسـمة. يصـل إلـى سوقها الصمغ - وفي السنوات غير العجاف - ريش النعام من دار حمـر، والتمر هندي والسنه مكه من بارا وما جاورها. وتأتيها الذرة بكميات كبيرة من المناطق التي حولها، والمواشي والجمال من دار الكبابيش ودار حمـر وبني جرار ودار حامد. كل ذلك بالإضافة إلى البطيخ وحبه والسمسم.

إن ثراء المدينة جعل من الأبيض أكبر سوق سوداني تؤمـه أعـداد كبيرة من المصدرين الأجانب الأوربيين والمصريين.

يسكن المدينة عدد كبير من التجار السودانيين الكبار مثل: الياس باشا أم برير، الحاج محمد ود بانقا، أحمد بك دفع الله، محمد ود العريق، الحاج خالد، إبراهيم ود عدلان وغيرهم. بالإضافة إلى هؤلاء صغار المزارعين والعمال والوسطاء. إن ضخامة المدينة والجوع الذي ضربها دعـا شـقا كبيرا من سكانها لطلب العون من الكنيسة الكاثوليكية والانضمـام إلـى تعاليمها. ولكن سريعا نضبت الأموال التي جاء بها المطـران واضطـر للرجوع إلى أوربا لطلب المزيد.



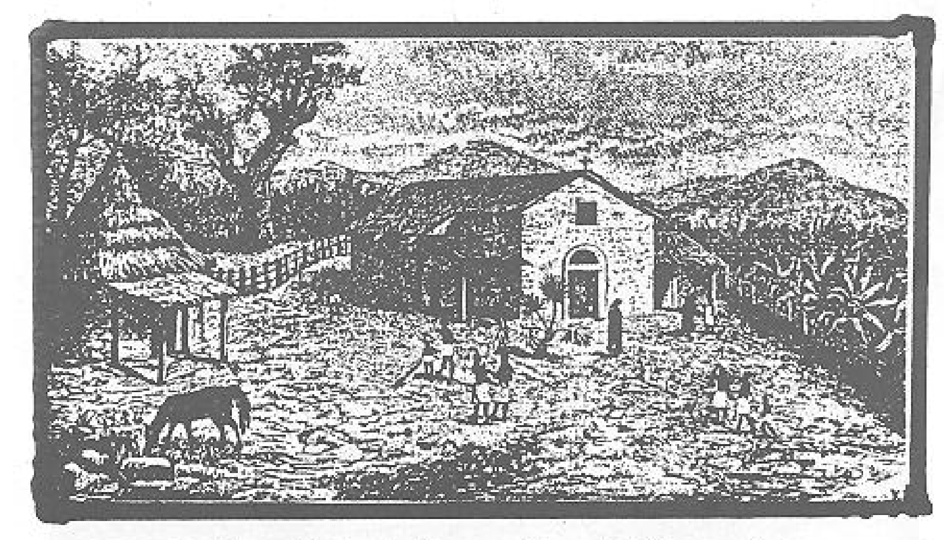
كنيسة الأبيض ومركز التعليم المسيحي من مؤسسات كمبوني في يناير ١٨٧١



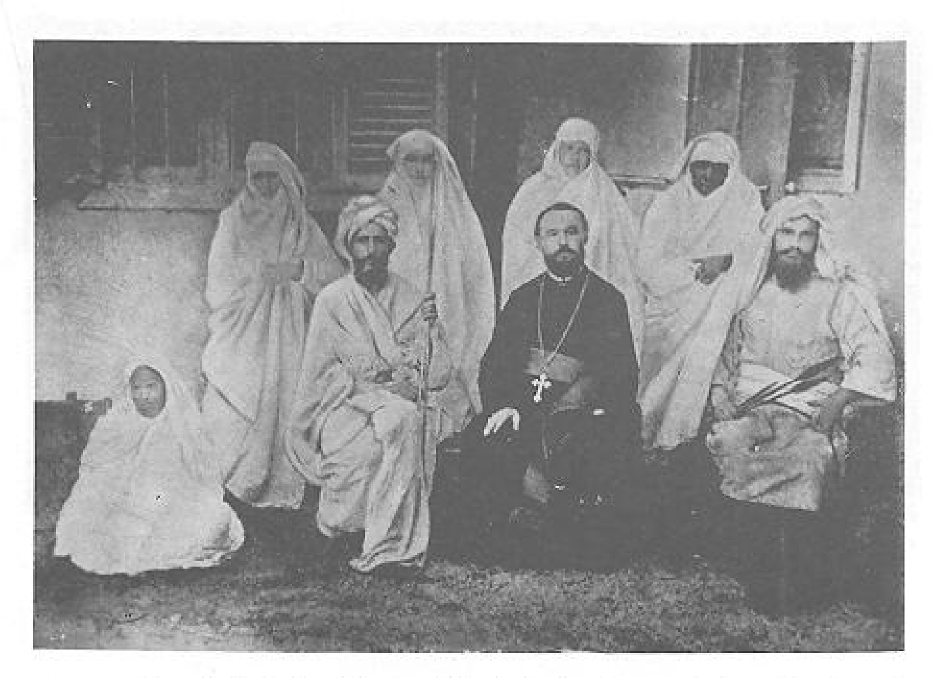
إرسالية وكنيسة الدلنج افتتحا في عام ١٨٧٤



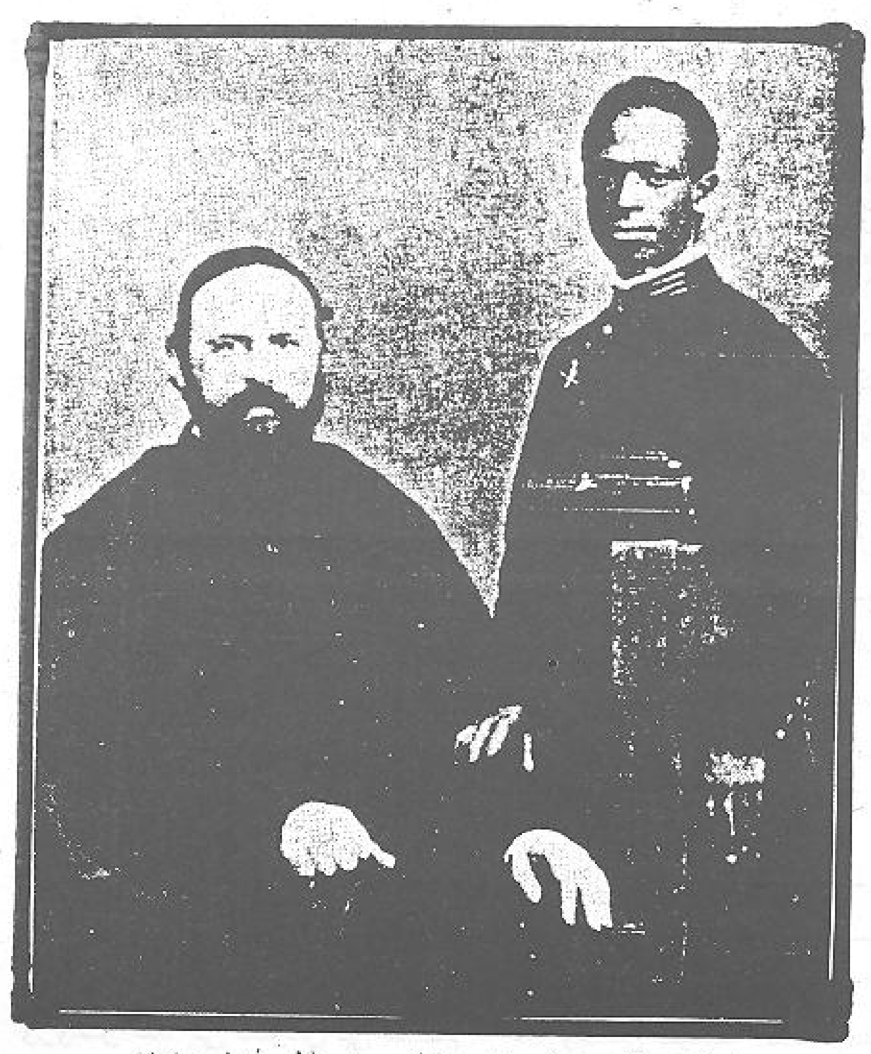
بعض الراهبات اللاتي كن بالسودان عام ١٨٧٧
الواقفات من اليسار: كونستا كورسي، فيتوريا باقانيني وجوسبا اسكاندولا
الجالسات من اليسار: ترزيا قريقوليني وماريا كاسبي



كنيسة ومزرعة الملبس بالقرب من الأبيض من تأسيس كمبوني



القاهرة: سوقارو مع بعض الراهبات اللائي كن إبان المهدية بالسودان



دانيال كمبوني مع السوداني دانيال سرور الذي أكمل دراسته الكهنوتية في كلية المجمع لنشر الإيمان وأصبح كاهنا في روما

القدوم الأخير:

في السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٠ كان كمبوني مبحرا مرة أخرى من نابولي إلى الإسكندرية مع مجموعة جديدة. في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٠ غادروا القاهرة إلى الخرطوم عن طريق سواكن. هذه المجموعة تكونت بالإضافة إلى كمبوني والراهبات الجدد من ثلاثة قساوسة هم: جوهان دختل وفرانس بمزوني والأب الذي أصبح مشهورا جدا في السودان نسبة إلى كتابه (عشر سنوات سجنا في معسكر المهدي) الأب النمساوي أوروالدر. والجدير بالذكر إن هذا الأب لم يستطع الخروج من السودان نسبة إلى اشتعال الثورة المهدية، وبقي بأمدرمان إلى أن استطاع الأركبشوب سوقاروا توقيع اتفاقية مع أحمد حسن العبادي من عرب باشري من منطقة السيالة بمديرية الحدود لتهريب أوروالدر من السودان إلى مصر ومعه اثنتان من الراهبات في مقابل مائة جنيه بضاعة يستلمها من الشيخ عبد الهادي في كورسكو مع عشرين جنيها مقدما، وعند إحضار المهربين يدفع الأركبشوب مائة جنيه عن كل رأس تم تهريبه من أمدرمان إلى مصر. تم الاتفاق المكتوب يوم ٩ يوليو ١٨٩١.

تمت عملية التهريب فعلا للأب أوروالدر والراهبة كترينا شنكريني والراهبة اليزابتا فنتوريني وفتاة سودانية تدعى عديلة كانت قد ولدت في كنيسة الخرطوم، ووصلوا كورسكو في الثالث عشر من ديسمبر ١٨٩١. أوروالدر عاد إلى السودان في عام ١٩٠٠ وبنى كنيسة الكاثوليك بالمسالمة بأمدرمان، وتوفي فيها في السابع من أغسطس عام ١٩١٣ ودفن بمقابر المسيحيين، ولكن قبره نبش وأخذت الكنيسة بقاياه إلى الخرطوم في الخمسينيات.

أعود فأقول إن كمبوني وصل إلى الخرطوم، وفي يونيو من عام ١٨٨١ رحل إلى غرب السودان. عاد المطران سريعا إلى الخرطوم بعد أن هده المرض والعواصف التي لقيها إبان رحلته تلك، وسقوطه من ناقة كانت تقله. عندما عاد إلى الخرطوم زاد علله في شهر سبتمبر من ذلك العام فقدان مجموعته لعدد كبير من القسس والراهبات. استكان للمرض إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في العاشر من أكتوبر عام ١٨٨١ بالغرفة الغربية من كنيسة الكاثوليك بالخرطوم، وهي مباني ولاية الخرطوم الحالية (الخرطوم، د. أبو سليم، صفحة ٥٥) أصبحت الآن هذه المباني مجلس الوزراء الاتحادي. دفن كمبوني في حديقة الكنيسة جنوب شرق قبر الأب رايلو، شمال رواق مدرسة الكنيسة بثلاثين مترا وعلى ميدان أخضر.

الثورة المهدية

الثورة الإسلامية:

إن رحيل المطران الكاثوليكي قد سبقته بتسعة وخمسين يوما معركة كان تأثيرها على تاريخ السودان والتبشير المسيحي به كبيرا. ففي الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٨١ استطاع جيش يتكون من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من أنصار الإمام المهدي - الذي دخل فعلا في نزاع مع الحكومة بعد إعلانه أنه المهدي المنتظر - أن يلحق هزيمة نكراء بجيش الحكومة. كان جيش الحكومة يتكون من ثمانمائة وخمسين جنديا يقودهم أبو السعود العقاد، وهو أحد تجار الرقيق المصريين، وكان غردون قد أخرجه من السجن بعد اتهامه بالقتل (غردون الخرطوم، تيرن بول صفحة ٥٠، فولكستون).

التبشير المسيحي والإسلام:

رغم أن الثورة المهدية لم تقم ضد أي مسيحي أو تبشير مسيحي في السودان، إلا أنها قامت على مبادئ إسلامية بالضرورة لن تسمح بتبشير غير إسلامي.

إنه ليس من العسير فهم لماذا سمحت الدولة التركية المصرية للمسيحية بالتبشير في السودان، في زمن كانت فيه الدولة العثمانية هي الخلافة الإسلامية. إن الضعف الذي أصاب تلك الخلافة ونشأة قوة عالمية تنتمي إلى الدين المسيحي كان عاملا. ثانيا فإن مصر التي كانت شكليا تحت السلطة العثمانية، لم تكن قوية التدين وحكامها لم يكونوا من أصول عميقة الإسلام أو من أصول عربية. ثالثا فلا أحد من حكام مصر كان يعتقد في استمرارية بقاء أوربي بالسودان، وخصوصا جنوبه حيث من الممكن أن تكسب الكنيسة تأييدا.

الثورة الإسلامية:

إن رحيل المطران الكاثوليكي قد سبقته بتسعة وخمسين يوما معركة كان تأثيرها على تاريخ السودان والتبشير المسيحي به كبيرا. ففي الثاني عشر من أغسطس عام ١٨٨١ استطاع جيش يتكون من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من أنصار الإمام المهدي – الذي دخل فعلا في نزاع مع الحكومة بعد إعلانه أنه المهدي المنتظر – أن يلحق هزيمة نكراء بجيش الحكومة. كان جيش الحكومة يتكون من ثمانمائة وخمسين جنديا يقودهم أبو السعود العقاد، وهو أحد تجار الرقيق المصريين، وكان غردون قد أخرجه من السجن بعد اتهامه بالقتل (غردون الخرطوم، تيرن بول صفحة ٥٠، فولكستون).

التبشير المسيحي والإسلام:

رغم أن الثورة المهدية لم تقم ضد أي مسيحي أو تبشير مسيحي في السودان، إلا أنها قامت على مبادئ إسلامية بالضرورة لن تسمح بتبشير غير إسلامي.

إنه ليس من العسير فهم لماذا سمحت الدولة التركية المصرية للمسيحية بالتبشير في السودان، في زمن كانت فيه الدولة العثمانية هي الخلافة الإسلامية. إن الضعف الذي أصاب تلك الخلافة ونشأة قوة عالمية تنتمي إلى الدين المسيحي كان عاملا. ثانيا فإن مصر التي كانت شكليا تحت السلطة العثمانية، لم تكن قوية التدين وحكامها لم يكونوا من أصول عميقة الإسلام أو من أصول عربية. ثالثا فلا أحد من حكام مصر كان يعتقد في استمرارية بقاء أوربي بالسودان، وخصوصا جنوبه حيث من الممكن أن تكسب الكنيسة تأييدا.

إن كنيسة بروسيا البروتستانتية قد حاولت التبشير وأنشأت كنيسة ومدرسة وديرا في الخرطوم - العاصمة - ولكنها فشلت في مقاومة الجو والأمراض، فمات بعض قسستها وهرب من استطاع، وبقيت بعض مبانيها إلى يومنا هذا تشكل مربعا من المتاجر بوسط الخرطوم (الخرطوم، أبو سليم صفحة ٣٩، دار الجيل بيروت).

أغلب الظن أن أحدا من المصريين لم يتصور نجاح تبشير مسيحي بين الوثنيين في السودان، كما أن التبشير بين المسلمين لاعتناق المسيحية سيكون ضربا من عدم الجدية.

ولفهم لماذا قامت الثورة المهدية، فهذا يرجع إلى منبت الحكم التركي المصري الذي وجدته الكنيسة الكاثوليكية بالسودان ونشأت تحت حكمه.

الثورة المهدية:

الثائر الإسلامي محمد أحمد المهدي، ولد بجزيرة لبب بدنقلا في ١٢ أغسطس عام ١٨٤٤، ودرس العلوم الإسلامية والعربية والتصوف على أيدي علماء مختلفين. لم يكن المهدي أول من ثار على الحكم التركي المصري. إن الثورات التي قامت ضد ذلك الحكم شملت جميع أنحاء البلاد، جنوبه وشماله، شرقه وغربه. ولكن الإمام المهدي كان أبعدهم استراتيجية، وأخصبهم عقلا، وأشدهم إيمانا بما قدم عليه.

بعد هزيمة جزيرة أبا التي أصاب بها الحكومة، التجأ بقواته إلى جبال النوبة لتدعيم قوته. هناك قضى على جيشين للحكومة، الأول بقيادة مدير فشوده - راشد أيمن - في يوم السبت التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٨٨١، والثاني بقيادة يوسف باشا الشلالي في يوم الاثنين التاسع والعشرين من مايو عام ١٨٨٢.

القبائل التي قبلت بدعوة المهدي للثورة هزمت القوات المصرية، وحررت أبا حراز واسحف والطياره وبارا.

نزل الإمام المهدي من جبال النوبة واتجه للأبيض حيث هزمت القوات السودانية هزيمة كبيرة يوم الجمعة الثامن من سبتمبر عام ١٨٨٢، عند هجومها على مدينة محصنة بالخنادق والحصون، وقوات الثورة تحمل السيوف والحراب في وجه المدافع والبنادق.

انسحب السودانيون من الأبيض وأقاموا حصارا عليها انتهى بتسليمها يوم الجمعة الثامن عشر من يناير عام ١٨٨٣.

انهيار التبشير المسيحي في كردفان:

حدثت أول مناوشة بين الثائرين من قبائل البقارة على منطقة الدلنج في يوم ٨ أبريل عام ١٨٨٢. قتل في تلك المناوشة بعض النوبة واثني عشر جنديا من قوات حامية الدلنج التي كان يقودها الملازم محمد سليمان.

تلت تلك المناوشة مناوشة أخرى استطاعت فيها البعثة الكاثوليكية إمداد النوبة - المناوئين للثورة - بعشرين بندقية (جوزف أوروالدر، صفحة ٢٦، الطبعة الثانية ١٨٩٢). كمن النوبة للثوار وقتلوا منهم خمسة عشر ثائرا، واستولوا على ثمانية خيول وبعض الغنائم.

عند وصول القوات الثائرة إلى فركه ذهب المك عمر مع ثائرين قلائل لتسلم منطقة الدلنج. هناك استسلمت له القوات المصرية ومعها رجال ونساء الكنيسة الكاثوليكية يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢. استقبلهم المك عمر استقبالا كريما، وكتب خطابا تبع القافلة التي أخذت القسسة

والراهبات إلى الإمام المهدي بالقرب من الأبيض. كل ذلك يبين الطريقة السلمية التي تم بها التسليم. لم يذكر المك عمر في ذلك الخطاب أو غيره شيئاً عن الأسلحة التي كانت بالكنيسة وقدرها ثلاثون بندقية (أوروالدر صفحة ٢٩)، أو العشرين بندقية التي قدمتها الكنيسة للنوبة لضرب قوات الثورة أو استشهاد الخمسة عشر ثائرا، لمعرفته بخطورة التهمة في القانون الذي كانت تحكم به البلاد، أو القانون الإسلامي أو غيره من القوانين.

أركب الأربع الراهبات على دواب وعين المك عمر ابنه ناصر لرعايتهن.

قرعت أجراس الكنيسة هناك لآخر مرة في الخامس عشر من سبتمبر عام ١٨٨٢. بعد ثلاثة أيام بدأت رحلتهم إلى الأبيض. عندما وصلوها وجدوا أن مزرعة الملبس وكنيستها قد سلمت بنفس الأسلوب.

قابلوا الإمام المهدي وكان متفهما لموقفهم، وقابلوا الخليفة عبد الله وكان عنيفا معهم. انتهى الأمر عند رفضهم للدخول في الإسلام. إن هذا حقهم إلّا إذا قاوموا الثورة بالسلاح، وهذا ما كانوا يعرفونه تماماً (أوروالدر صفحة ٤٦).

بقي القسسة والراهبات مع المجاهدين، بل عين المهدي مسيحياً سوريا – جورج اسطمبوليه – كان قد ادعى الإسلام لحماية مصالحه التجارية، للإشراف عليهم ومساعدتهم.

الدعوة إلى المهدية:

إن الثورة التي قام بها الإمام المهدي لتطهير العالم العربي من الحكم

التركي، الذي كان يؤمن بفساده ومخالفته لتعاليم الإسلام وكفره، اتخذت جميع مبادئها في الدعوة والتنظيم والتكوين العسكري والحكم والتعامل مع المجاهدين معها، على اسس إسلامية صرفه. قدوة المهدي في كل ذلك، الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ورغم أن ذلك كان صعب الفهم على من لا يملكون خلفية إسلامية ولم يدرسوا التاريخ الإسلامي، إلا أن التعامل مع تلك الثورة كان من الممكن أن يكون أكثر سهولة بقراءة كتابين فقط – واحد في التاريخ الإسلامي والثاني في الفقه الإسلامي.

تنظيم الجيش:

تكون الجيش المهدوي في قدير من ثلاث رايات – أي ثلاث وحدات عسكرية – لا تختلف عن بعضها في مهماتها العسكرية، ولكنها تختلف في تكوينها الجغرافي. فالراية الزرقاء (أي السوداء) كانت تمثل أهل الغرب، والراية الحمراء تمثل أهل شمال السودان، والراية الخضراء تمثل أهل الجزيرة والنيل الأبيض.

هذه المجموعات هي قوات لأنها محاربة.. أما في حقوقها وما لها وما عليها، فهي مجموعات مدنية مجاهدة في سبيل الله. المال الذي يجمع يقسم عليهم بحسب أعدادهم (منشور الإمام المهدي رقم ٧٢ صفحة ٢٦١ منشورات المهدية، د. أبو سليم، دار الجيل ١٩٧٩) حيث يقول: (وحيث حبيبي المتحصل في بيت المال الثلاثون ألف ريال ولم تصبر الأخوان إلى أن يحصل الله لهم الكفاية فالذي قلته في التقسيم على البوارق وكل يقسم بمعرفته على جيشه فمناسب وكذلك إعطاء الخمسة عشر ألف إلى بوارق خليفة الصديق "الخليفة عبد الله التعايشي، الراية الزرقاء" كونهم نصف

الجيش وإعطاء الثمانية آلاف إلى بوارق خليفة الكرار "الخليفة محمد شريف، الراية الحمراء" لزيادة جيشه والسبعة آلاف على بوارق خليفة الفاروق "الخليفة علي ود حلو قائد الراية الخضراء").

كان الدخل المالي يأتي من الغنائم التي تقسم حسب الشرع الإسلامي، ومن التبرعات التي يقدمها أهل المال الذي يريدون التجرد من المال والجهاد في سبيل الله (منشور الإمام المهدي رقم ٧١ المصدر السابق صفحة ٢٦٠) حيث يقول: (فلازم عليكم يا أحبابي أن تصفّوا جماعتكم كتصفية أبي بكر بن عامر – أمير قبيلة العمارنة – ولا تقصروا، وتكون التصفية بالكتاب والبينة ليكون أداء أمر الله فيهم وأداء حقوقهم).

طبيعي أن يكون المال الوارد إلى بيت المال قليلا في بلد نهب على مدى ستين عاما بواسطة مستعمريه. كان الزاد قليلا لكل المجاهدين بما فيهم الإمام المهدي، الذي كان يتلقى ما يتلقاه غيره من بيت المال. الذين كانت لديهم أموال طلب منهم أن يصرفوها على أنفسهم وعلى المحتاجين حولهم من المجاهدين على قلة ما لديهم (منشور ٧٠ صفحة ٢٥٨، المصدر السابق) حيث يقول: (فإذا فهمتم ذلك أحبابي، فجميع الذي عنده شيء – وإن قل – فلينفقه على نفسه وما يستطيع النفقة عليه وإن بالإيثار. وإياكم ثم إياكم من الادخار مع وجود المحاويج أهل الافتقار).

هذه التعاليم والتنظيمات العسكرية وإمداداتها قد حوتها عشرات المنشورات من قائد هذه الثورة. وعندما طالب رجل يدعى محمد الحاج أحمد مرتبا، كان رد الإمام المهدي عليه أن الله هو الذي يجزي على أعمال الناس (منشور ١٠٣ صفحة ٣٤٣ المصدر السابق).

معركة شيكان:

قامت الحكومة المصرية وبمساعدة الحكومة البريطانية بإرسال جيش إلى كردفان للقضاء على الثورة المهدية. كان الجيش بقيادة بريطاني هو مورقان هكس، يساعد هذا الجنرال حكمدار السودان علاء الدين باشا. ويضم هذا الجيش أيضا مجموعة أخرى من الأوربيين. القوة الفعلية للجيش كانت أربعة آلايات، وعشر سرايا فرسان. التسليح كان بنادق الرمنقتون وأربعة مدافع كروب، وعشرة مدافع جبلية، وستة مدافع نوردنفلت، وستة مدافع مترليوز.

شقت هذه القوة – التي كانت أكبر قوة مشت على أرض السودان – شقت طريقها إلى الدويم – على النيل الأبيض – ثم اتجهت إلى عاصمة كردفان الأبيض التي تبعد من الدويم بمائتين وخمسين ميلا.

بعد مناوشات متعددة في الطريق، وصلت إلى غابة شيكان في الخامس من نوفمبر عام ١٨٨٣ حيث قضت عليها قوات المهدي في ربع ساعة قضاءا تاما بسيوفها.

مصر وبريطانيا وفكرة إخلاء السودان:

صدمة الهزيمة كانت كبيرة على مصر والجيش البريطاني الذي احتل مصر منذ الثالث عشر من سبتمبر عام ١٨٨٢. اقترحت بريطانيا على مصر إخلاء حامياتها في السودان، في الزمن الذي أرسلت قوات مصرية تركية بقيادة أحد أبطال الجيش البريطاني السابقين هو فالنتاين بيكر. كان تعداد هذا الجيش ستة آلاف رجل، وضباطه من الأتراك والمصريين والإنجليز، ومسلحا ببنادق المارتيني هنري وثلاثة مدافع كروب وثلاثة مدافع سريعة الطلقات ماركة فاتلنج.

في معركة دامت عشرين دقيقة في الرابع من فبراير عام ١٨٨٤ استطاع ألف ومائتا رجل من قوات الثورة بقيادة الأمير عبد الله حامد، من القضاء على أربعة آلاف وخمسمائة رجل من جيش فلنتاين بيكر، وأصيب القائد نفسه بطلق ناري أدى إلى وفاته بعد أيام. ألف وستمائة استطاعوا الوصول إلى السفن التي أتت بهم وهربوا إلى بلادهم.

محاولة الانتقام:

استمرت بريطانيا في استعمال كل الأساليب لحمل الحكومة المصرية على إخلاء السودان، الشيء الذي أدى إلى استقالة حكومة شريف باشا لعدم تعاونه، وعين الخديو نوبار باشا رئيسا للوزراء الذي وافق على الإخلاء.

حدث هذا في الزمن الذي كانت بريطانيا تخطط فيه لتعيين حكمدار إنجليزي على السودان، وتعد في جيش بريطاني ليدخل السودان من الشرق، ثم السير من سواكن إلى بربر عبر صحراء الشرق التي طولها ٢٤٥ ميلا واحتلال السودان.

حاولت بريطانيا تعيين صمويل بيكر أو غردون لكي يكون حكمدارا، وفي النهاية قبل الأخير. وفي أقل من شهر كان جيش انتقامها لهزيمة فلنتاين بيكر ترسوا سفنه على سواحل السودان بقيادة جنرال قراهام.

تكون هذا الجيش من قوات بريطانية في مقدمتها لواء السواري العاشر، الذي كان يقوده القائد السابق المهزوم قبل طرده من الجيش البريطاني بتهمة محاولة اغتصاب بنت تدعى كيت ديكنسون في قطار كان يسير من محطة ووكنج إلى لندن. تبعت السواري ألوية (البلاك وتش) و(بلو جاكتز) و(القاردز) و(اليورك) و(اللانكستر) وسرايا فرسان

متعددة، وطواقم مدفعية من المدفعية البريطانية ومن الأسطول الملكـــي، وقوات من المهندسين الملكيين، ومستشفى ميدان. بلغ عدد الجيش أربعـة وعشرين ألف مقاتل، يحملون بنادق المارتيني هنري، ومدفعي قـــاردنر، وثلاثة مدافع ميدان.

حاربت هذه القوة جيشا بقيادة الأمير مدني في (النيب) يضم ما يقـل عن ثلاثة آلاف رجل، في التاسع والعشرين مـــن فـبراير عـــام ١٨٨٤. استشهد من القوات السودانية نصفهم وجرح النصف الآخر. أما قراهـــام فقد فقد أربعة آلاف رجل وجرح له ألفان. كما أنـــهم أطلقـــوا فـــي تلـك المعركة أربعة ملايين ونصف المليون طلقة من ذخيرتهم، وكل ذخـــائر المدافع الخمسة التي كانت لديهم.

كسب قراهام المعركة وخسر النصر، فقد اضطر إلى تـــرك الأرض التي احتلها لعلاج جرحاه وللحصول على إمدادات بريطانية أخرى.

في الحادي عشر من مارس ١٨٨٤ خرجت قوات قراهام من سواكن مرة أخرى متجهة إلى التاماي في مربعين. التقت هذه القوة بســتة آلاف ثائر يقودهم أمير الأمراء عثمان دقنه عند وادي (التمانيب) فـــي الثـالث عشر من مارس عام ١٨٨٤.

اخترق الأمير عثمان دقنه المربع الإنجليزي الأول - لأول مرة فـــي تاريخ بريطانيا العسكري - في أقل من عشر ثوان. وفي أقل من عشرين دقيقة قضى على الثمانية آلاف مقاتل بريطاني الذي كانوا بالمربع الأول، واستشهد للأمير ألفا مقاتل.

ما بعد الهزيمة المنكرة:

سحبت بريطانيا قواتها من الأراضي السودانية، ما عدا جزيرة سواكن، بعد هذه الهزيمة النكراء التي بقيت منها كلمات شاعر الجيش البريطاني (كبلنق):

(والآن إليك أيها الفظي وظي في دارك بالسودان

إنك فقير دهمه الظلام وثني

ولكنك رجل مقاتل

من الطراز الأول

وهنا إليك

أنت يافظي وظي

بشعر رأسك الجاف العشبي

أنت أيها الشحاذ الملتزم الأسود

لأنك حطمت المربع الإنجليزي)

غردون حاكم عموم السودان:

في السادس والعشرين من يناير ١٨٨٤ عين الخديوي توفيق الجنرال غردون حاكما عاما للسودان بناء على أمر من حاكم مصر الفعلي (بيرنق) المندوب السامي البريطاني الذي كانت تحتل بلاده مصر. فرمان التعيين يقول: (وعندما كان هدفنا المخلص أن نفعل ما هو عدل وحق

لإزالة كل مصادر عدم الرضاء، وأن نحافظ على الإنصاف بين الأهالي، فإننا هنا نعينكم حاكما عاما للسودان بسبب معرفتكم الراسخة بهذا البلد، ونثق بأنكم سوف تحملون نوايانا الحسنة لإقامة العدل والنظام، وأنكم سوف تؤكدون السلام والتقدم لأهل السودان بالحفاظ على أمن الطرق وفتحها للتجارة) (غردون الخرطوم، بلنت ١٩١١، صفحة ١٩٧).

في نفس اليوم وفي تمام العاشرة مساء غادر هذا الجنرال محطة بولاق الدكرور متجها إلى السودان. كان في رأسه تقسيم السودان إلى دويلات. يحكم في دارفور عبد الشكور عبد الرحمن شاتون، الذي أتى معه من مصر. إن عبد الشكور هو أحد أبناء ملوك دارفور السابقين، وكان مسجونا في مصر. اختلف هذا الأمير مع الجنرال في الطريق ورجع إلى مصر مصاحبا الثلاث والعشرين امرأة اللاتي كن معه.

الخطة الثانية التي كانت في رأسه هي تعيين الإمام المهدي حاكما لكردفان التي استولى عليها بسيفه. إنه كتب إليه خطابا وأرسل إليه هدية لكي يقنعه بأن يكون حاكما لكردفان، وتكون له علاقة حميمة به في الخرطوم. كما طلب منه في ذلك الخطاب إرسال المسيحيين الذين بكردفان له في الخرطوم.

رد عليه الإمام المهدي الذي سخر منه بخطاب خيب آماله في كسب الزمن لحين رمي خط حديدي بين سواكن وبربر وقدوم قوات بريطانية لكي تقوم هي باحتلال كل السودان.

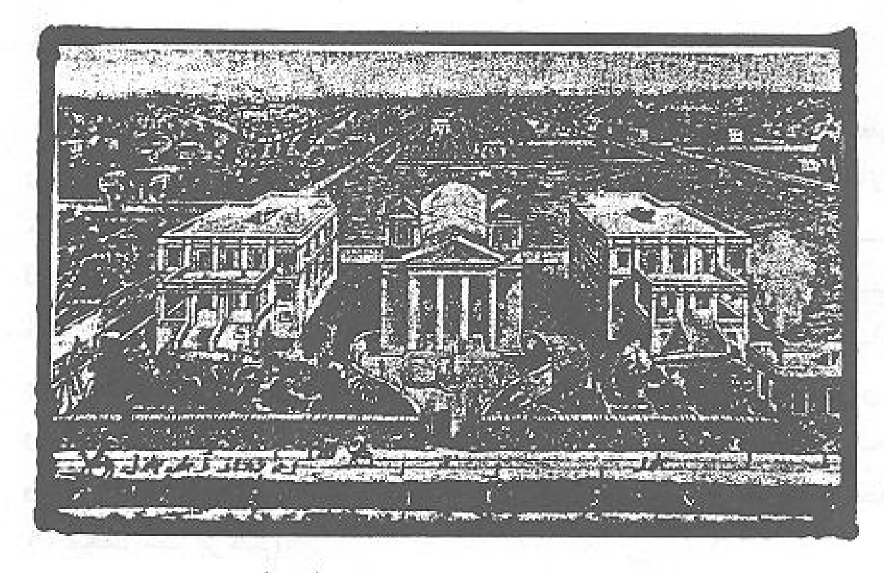
غردون والقسسة:

التقى غردون وهو بأسوان بالقسسة والراهبات الذين تركوا الخرطوم بقيادة المطران الجديد (فرانسسكو سوقارو) الذي عينه البابا خلفا لدانيال

كمبوني في الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٨٨٢. حدثه القسسة عــن صعوبة الموقف بالسودان، وأنهم اتخذوا من أسوان مقرا لهم.

إن غردون كان يعرف ما نخطط له بلاده، ويعرف أن جيش فلنتـاين المكون من قوات مصرية وتركية سوف يقوم باحتلال شـرق السـودان، وأن لواء السواري العاشر سيكون خارج المياه الإقليمية السودانية وسيتقدم مع قوات بريطانية أخرى لاحتلال الشرق والتقدم إلى بربر. رغم كل مـا عرف غردون من التخطيط البريطاني إلا أن الكلمات الواقعية التي تحدث بها المطران الكاثوليكي أصابته ببعض الكآبة، فهو يعـرف أن المطـران ورجال كنيسته لو رأوا ثقب إبرة لنجاح بقائهم في الخرطوم لما غادروها.

تركهم غردون وتقدم إلى أبي حمد وبربر حيث أخفى فرمان تعيينـه الأصيل وذكر لموظفيه هناك وزعماء المدينتين أنه جاء لإخلاء السـودان من الحاميات المصرية.



معاهد كمبوني بالقاهرة التي كانت تجمع الأفارقة السودانيين
بمصر وتدربهم على الأعمال الكنسية وتدفعهم للسودان للتبشير فيه.

غردون في الخرطوم:

عندما وصل غردون إلى الخرطوم في الثامن من فبراير ١٨٨٤ بعد رحلة عامرة بخيبة الأمل والأخطار، استقبله الموظفون والأجانب استقبالا حارا. الشيخ حسن المجدي قرأ فرمان تعيينه، ومأمور الضبطية إبراهيم لبيب ترجم خطابه الذي حمل فيه تحيات الخديو وملكة بريطانيا لجميع الشعب السوداني. وقال إنه جاء لفتح الطرق للتجارة والحج، وأنه جاء واليا من قبل الخديو والملكة البريطانية، وقد فصل السودان عن مصر، وأنه عين المهدي حاكما لكردفان فقط، وأنه ألغى متأخرات الضرائب، وسيعفي ضرائب الثلاث السنوات القادمة. (الفداء في دفع الافتراء، صفحة ٩، محمد عبد الرحيم).

إن كل ما ذكره غردون كان تفكير حاكم يتمتع بعقلية عصفور. الإمام المهدي رد عليه في التاسع من مارس ١٨٨٤ ساخرا منه ودعاه إلى الدخول في الإسلام.

بخصوص ترحيل المسيحيين إليه في الخرطوم رد عليه الإمام المهدي قائلا: (وأما المسلمانيون "أي الذين أسلموا" والمسيحيون الذي دعوت بطلقهم إليك، فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفي دار الأبد كما أريده لك ولكافه عباد الله فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم).

أيضا رد هدية الملابس الفاخرة التي أرسلها إليه غردون، وأرسل إليه الملابس الخشنة التي يلبسها هو وأنصاره من الثوار.

حصار الخرطوم:

في منتصف فبراير بدأت قوات الثورة التي جندها الإمام المهدي في

حصار الخرطوم.. أول الذين استجابوا لدعوة الثورة الشيخ العبيد ود بدر، أحد مشايخ الطريقة القادرية ويسكن أم ضبان على مشـــارف الخرطـــوم بحري، حاصر الخرطوم من الشمال الشرقي.

قوات الشيخ البصير حاصرت الخرطوم من ناحية الجزيرة. قـــوات الشيخ المصطفى ود أم حقين - الســـروراب والشـــهيناب - حـــاصرت الخرطوم من ناحية أمدرمان. قوات الأمير عبد الرحمن النجومـــي التـــي قدمت من كردفان أكملت الطوق ولم يبق إلا الطريق النيلي.

المعارك التي دارت في منطقة الحصار، وتواصلت لمدة أحد عشـــر شهرا، بلغت أربع عشرة معركة. أولها معركة الحلفايا فـــي ١٣ مـــارس ١٨٨٤ حيث استطاع ثوار العبيد ود بدر هزيمة قوات غردون بقيادة فحل أغا، وأسرت من قواته مائة وخمسين. آخر هذه المعارك هـــي معركـــة تحرير الخرطوم التي وقعت في صباح السادس والعشـــرين مـــن ينـــاير ١٨٨٥ وأنهت الحكم المصري.

استسلام دارفور:

دارت معارك متعددة بين سلاطين حـــاكم دارفـــور وثـــوار قبيلـــة الرزيقات بقيادة المادبو. أضعفت هذه الحروب قوات سلاطين وأصابتـــها بالمحاق. بعد هزيمة شيكان شعر سلاطين بضعف موقفه فأعلن أنه أصبح مسلما، وسمى نفسه عبد القادر، عل قواته المسلمة تثق فيه. ولكنه اضطر سريعا للتسليم لممثل المهدي الأمير خالد زقل والذهـــاب إلـــى المـــهدي وإعلان طاعته. استمر سلاطين - حتى هروبه من الســـودان - مدعيـــا الإسلام ويقوم بكل طقوسه وينتهي عند نواهيه.

استسلام بحر الغزال:

دارت معارك متعددة بين قبائل الدينكا والنوير ضد قوات الحكومة المصرية بقيادة لبتون باشا الإنجليزي. ولكنه في النهاية استسلم إلى قائد القوة التي أرسلها المهدي إلى هناك بقيادة الأمير كرم الله كركساوي. تم الاستسلام في الثامن والعشرين من أبريل عام ١٨٨٤.

خط الاستواء:

منطقة خط الاستواء كان يحكمها الدكتور امين باشا (دكتور شنايتزر) منذ عام ١٨٧٨. انشغلت المهدية بالعمل الحربي في وسط السودان وأبقت خط الاستواء للمستقبل. تمردت قوات أمين باشا ورفضت الإذعان لأوامر الحكومة المصرية بالإخلاء.

في مارس ١٨٨٥ حرر الأمير كرم الله كركساوي مدينة أمادي في هجوم خاطف. أرسل بعد ذلك الخليفة عبد الله ثلاث بواخر مليئة بالجنود بقيادة الأمير عمر صالح، فهزم أمين باشا في وقعتين متتاليتين، فرضخ الجنود المتمردون في جيش أمين باشا لأوامره بالانسحاب عن طريق زنجبار. هذا وتحررت كل المديرية بحلول نوفمبر ١٨٨٩.

الزحف عند الإمام المهدي:

الدعوة التي قدمها الإمام المهدي لكل القبائل وزعمائها بالسودان لم تغفل قبيلة أو زعيما لقبيلة أو زعيما دينيا مسلما. وكان كما قال في منشوره عندما عزم على الزحف على الخرطوم (منشور ٢٩ صفحة ١١٧): (فإذا فهمتم ذلك فاعلموا أن السفر هو لنصرة الدين فاستعينوا عليه بالتوكل على الله والالتجاء إليه في كل الأمور فإن بيده الماء في كل محل،

وبيده الحياة في كل حال، وبيده الرزق في كل وقت، فلا تتكلوا على غيره ولا يصحبكم فيه إلا النشيط. والمريض والنساء اللاتي لا يستطعن المشي بأرجلهن والقوة على الحرب فلا يسافرن معنا. والعهد مع جميع النساء أن من لا تقدر على المشي والجهاد الشطيط لا تسافر معنا. ومن طلبت زاملة أو نحو ذلك لا إجازة لها بالسفر ولتقعد مع الأحباب الذين أمرناهم بالقعود لحراسة البلد وإقامة الدين والسلام).

وعليه فالزحف كان للقادر فقط والذي يريد الجهاد في سبيل الله. يذهبون جميعا في زحف واحد، حتى إذا أرهقوا، أقاموا في العراء معسكرين فيه. وقد وصف (أوروالدر) هذه المعسكرات في كتابه صفحة ٤٦ بقوله: (كان معسكر المهدي – من تل الجنزارة إلى جبل الحرازة – بالليل عندما يشعلون النار لطبخهم، كان المعسكر الضخم هذا يبدو بحرا من النيران تائها في الأفق البعيد).

سياسة الإمام المهدي نحو الأوربيين المسيحيين:

ليس من الصعب استنتاج السياسة التي انتهجتها ثورة الإمام المهدي ومن بعده حكومة خلفه عبد الله التعايشي تجاه غير المسلمين ورجال الدين المسيحي الذين وجدوهم بالبلاد أو قدموا إليها بصرف النظر عن الدين الذي انتهجوه أو ادعوه. ويمكن حصر هذه السياسة في نقاط محددة هي:

أولا: عدم محاكمة أي أوربي في أي تهمة قام بها قبل الثورة. وهذه ظهرت جليا عندما لم يورد المك عمر موضوع الأسلحة التي وجدت بكنيسة الدلنج أو العشرين بندقية التي قدمها القسسة إلى سكان المنطقة لمحاربة الثائرين. وحتى عندما عرف ذلك فيما بعد لم يسأل أحدهم عما فعل. أيضا عدم قتل أي أوربي لأي جرم ارتكبه مهما بلغ. ولحسن الحظ

فإن أغلب ما وقعوا فيه من أخطاء كان التجسس ولم يشمل حدا إسلاميا يمكن إثباته بشهود فقط.

ثانيا: عرض الإسلام على غير المسلمين واجب إسلامي، ولهم الحق في رفض الدعوة أو قبولها، وذلك بموجب تعاليم الإسلام، قال تعالى: (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر) سورة الغاشية الآيات ٢٠-٢١-٢٢). إن القرآن جعل عقاب الذين لا يؤمنون من اختصاص الذات الإلهية وهذا يبدو جليا في متابعة آيات السورة السابقة. إن بقاء دولة إسلامية لا يمنع من وجود من يتخذون غير الإسلام دينا، وذلك بموجب جميع آيات سورة (الكافرون).

ثالثا: مساعدة المسيحيين – وخصوصا الأوربيين – للعيش في المعسكر وفيما بعد في أمدرمان، كان بإضافتهم إلى شخصيات لها وزنها السياسي أو الاقتصادي وقدرتها على رعايتهم وحمايتهم من الجهلة وضعاف العلم الذي قد لا يفهمون موقف الإسلام منهم. وفي أمدرمان أبدلوا هؤلاء بقادة من نفس مواطنيهم ما أمكن. وفي كل الحالات لو ظهر أنهم يحتاجون إلى مال، فإن بيت المال يقوم بالصرف عليهم (أوروالدر صفحة ٩٧).

وفي الحقيقة فإن كل المنضمين إلى معسكر المهدي كانوا من المجاهدين الذين لا يملكون شيئا أو من الذين تبرعوا بكل ما لديهم. ورغم أن الراهبات عملن في حياكة الملابس التي درت عليهن مالا لا بأس به، ولكن العدد الكبير من رجال الكنيسة احتاج فعلا لمساعدة بيت المال.

رابعا: كتب الأب (بنومي) إلى الإمام المهدي بالابيض طالبا منه السماح له ولرجاله من القسسة والراهبات بالرجوع إلى أهلهم في أوربا.

رد عليه الإمام المهدي بخطاب لا يمانع فيه من رجوعهم ولكن عندما تسمح الظروف بذلك. والمقصود من ذلك توقف الأعمال الحربية بالبلاد، فحينها الشرق كانت به الثورة مشتعلة، وكذلك الخرطوم محاصرة وأيضا بربر. ولكن على ما يبدو أن الإمام المهدي ومن بعده الخليفة عبد الله بدأ يشعران بخطورة خروج هؤلاء الأجانب على البلاد نتيجة المحاولات المتعددة للتجسس التي جرت بين الأوربيين واخوتهم في الخرطوم، وفيما بعد بمصر.

محاولات تهريب القسسة من الأبيض إلى الخرطوم بدأت بخطاب أرسله القنصل النمساوي مع أعرابي. تلقى القسسة الخطاب إبان بقائهم مع رجل يدعى اسطمبوليه عينه المهدي لرعايتهم، ثم قاموا بالرد على الخطاب دون علم المهدي. تم القبض على الرد الذي كان يحمل معلومات رأتها الثورة مضرة بموقفها. عفا الإمام المهدي عنهم ولكن عمليات التجسس على قوات المهدي أصبحت أغلى سلعة يمكن ارسالها الى الخرطوم، أو للقوات البريطانية بمصر.

قبل أن يذهب ركب الإمام المهدي بعيدا عن الأبيض، هرب الاب بنومي من الأبيض بمساعدة أعرابي أرسل من مصر. وفي الأبيض ساعده رجل قبطي يدعى (سيدهم) لكي يتم هروبه (أوروالدر صفحة ١٧٩).

آثار هروب بنومي:

هروب أكبر قس في البعثة الكاثوليكية كان الشيء الذي أقنع الثورة المهدية بعدم السماح لكل الأجانب، وخصوصا القسسة بمغادرة المعسكر أو البلاد فيما بعد. ليس ذلك فحسب، بل تعرضوا بعد ذلك للمراقبة والشك

فيما يقومون به من اتصال بالآخرين.

القبض على محاولة التجسس الثانية:

لبتون الإنجليزي الذي كان حاكما على مديرية بحر الغزال أتى إلى الإمام المهدي مستسلما. عفا عنه الإمام المهدي وقد قال حارسه إنه كان معجبا بالمهدي وثورته. أعلن أيضا لبتون إسلامه فأسماه المهدي (عبد الله).

غردون في الخرطوم أرسل خطابا مع رجل قبطي يدعى صالح شنوده إلى لبتون. تم القبض على القبطي وفيما بعد على لبتون وسجن (إبراهيم فوزي، السودان بين يدي غردون وكتشنر، صفحة ١/٢٥٦).

رغم المراقبة الدقيقة فإن عمليات التجسس زادت بشكل ملحوظ بعد إنشاء استخبارات الجيش البريطاني بقيادة سير تشارلز ولبسون، وكانوا يعملون من دنقلا وسواكن وكورتي.

أكبر العمليات التي قام بها هذا الجهاز في عام ١٨٨٤ هي إرسال فرنسي يدعى (أوليفر بان) للتجسس على قوات المهدي. استطاع (أوليفر بان) أن يضلل حتى سلاطين بأنه جاء لأن فرنسا تريد تقديم مساعدات مالية وعسكرية إلى المهدي بشروط (السيف والنار، صفحة ١٦٥ نسخة عالم الكتب).

إن مخطط (أوليفر بان) لم ينطل على الإمام المهدي، ورغم ذلك لم يحاكم وإنما ضم إلى موكب المهدي وقام بالإشراف عليه سلاطين إلى أن توفي بالتايفوس.

عندما بلغ المخابرات الإنجليزية نبأ موته، دفعوا المال المتفق عليه

لتجسسه، لزوجته في فرنسا وقدره خمسون جنيـــها لا غــير (غــردون الخرطوم، بلنت ١/١١، صفحة ٤٤١).

تجسس سلاطين:

عندما وصل ركب الإمام المهدي إلى ديم أبي ســـعد بـــالقرب مـــن أمدرمان، طلب الإمام المهدي من رودلف فون سلاطين أن يكتب خطابـــا إلى غردون يطلب منه فيه التسليم. كتب سلاطين الخطاب ولكن لم يكتـب ما طلب منه، وإنما تكلم في خطابه عن ضعف جيش المهدي وما قام بـــه هو إبان عمله في دارفور.

اكتشف الإمام المهدي عملية التجسس هذه فقام باعتقال سلاطين ومن بعد سجنه في أمدرمان عدة أسابيع (السيف والنار، صفحة ١٧٦، نســـخة عالم الكتب).

المهدي يغادر الأبيض ويترك أهل الكنيسة بها:

عندما تحرك معسكر الإمام المهدي من الأبيض إلى الخرطوم تـــرك أهل كنيسة الأبيض والدلنج والملبس بها لسببين: الأول أنهم ليسوا جـــزءا من مقاتلي الإمام المهدي، والثاني أنه من الخير إبعـــادهم مـــن منـــاطق الحروب والإتيان بهم إلى العاصمة عند فتح الطرق وتوقف القتال بها.

أسماء أهل كنائس كردفان:

كان القسسة والراهبات الذين وجدوا بالملبس والدلنج هم الراهبـــات: يولاليا بسافنتو، اماليا اندرياس وماريا كابريني. والرهبان هـــم: لويجـــي بنومي الذي هرب، فويسبي أوروالـــدر والشماســـان قـــابريل ماريـــاني وقويسبي ريقونوتو. توفي من هؤلاء الشماس قابريل مارياني في الثالث

عشر من ديسمبر ١٨٨٢، والراهبتان يولاليا بسافينتو في السابع والعشرين من أكتوبر ١٨٨٢، وأماليا اندرياس في السابع من ديسمبر ١٨٨٢. أضف إلى هؤلاء الذين كانوا تحت رعاية جورج اسطمبولية من رجال كنيسة الأبيض، وهم: القسسة لوسي وهو الذي كان يقوم بأعمال المطران كمبوني بعد موته، وباولو رزقنولي، وطالب الكهنوت اسيديرو لوكاتلي. أما الراهبات فكن: تريزا قريقوليني رئيسة الراهبات بالمنطقة، وكاترينا شانكريني وبتينا فنتوريني، وكونستا كورسي، والراهبة السودانية التي جندت في جبال النوبة وأسميت فورتوناتا كواسكا.

حياة المبشرين:

ليس من الصعب تصور الموقف الذي حدث بالفعل للمبشرين، فمن الناحية النفسية فإن العمل الذي من أجله قد حضروا إلى هذه المجاهل البعيدة قد انتفى، ومن الناحية الاقتصادية فإن إمداداتهم المالية وغيرها التي كانت تأتيهم من أوربا قد توقفت. هم الآن يعيشون كما يعيش أهل السودان وفي حالة حرب. من الناحية الصحية فإن المبشرين الذين فقدوا نصفهم تقريبا بسبب الأمراض المستوطنة مثل الملاريا والدسنتاريا وفي بعض الأحيان التيفويد، كان من الطبيعي أن يزيد عدد موتاهم بسبب المجاعة التي سببها حصار الأبيض وبسبب تجمع أعداد كبيرة من المواطنين في مكان واحد. ولكن لحسن الحظ فإن الصورة لم تتخذ هذا الشكل الذي كان متوقعا لها، بل قلت نسبة الوفيات بينهم إذا قيست بفترة ما قبل الثورة.

إستراتيجية تحرير الخرطوم:

دارت بين الثوار وقوات غردون أربع عشرة معركة، كان يحاول

فيها غردون فك الحصار عن العاصمة. كل المحاولات التي قام بها الإمام المهدي لإقناعه بالتسليم دون إراقة دماء لم تفلح. حتى خطاب المهدي الذي كتبه إلى غردون في السابع من يناير عام ١٨٨٥ عندما سمع أن غردون يبث في دعاية يقول فيها إن المهدي يريد مالا في مقابل تركه يعود إلى بلاده، لم ينجح في إقناعه بالتسليم (ابراهيم فوزي، صفحة ١/٣٩٥).

في هذا الخطاب بتاريخ ٧ يناير ١٨٨٥ كتب الإمام المهدي إلى غردون يقول: (إنك قلت إن الإنجليز يريدون أن يفدوك وحدك بعشرين ألف جنيه، ونحن نعلم أن الناس يتقولون من البطال كلاما كثيرا ليس فينا. وذلك لصدود من أراد الله شقاوته، ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا. وأنت إذا قبلت نصحنا فبها ونعمت وإلا إن أردت أن تجتمع على الإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم والسلام) (شقير صفحة ٨٥٧).

لم يقبل غردون العرض، وكانت حساباته مبنية على أن الإنجليز الذين دخلوا السودان فعلا سيأتون لنجدته. ورغم أن جيش ولسلي كان يتكون من أربعة عشر ألف جندي بريطاني، وسبعة آلاف جندي مصري، إلا أن غردون لم يفكر في أن أعداءه يملكون أيضا إستراتيجية كانت حتى تلك اللحظة أفضل ترتيبا وأدق تنفيذا من استراتيجيته التي برهنت على فشلها - حتى تلك اللحظة - عشرات المرات. إن الإمام المهدي كان ملما بكل خطوة خطاها الجيش القادم بقيادة الفريق ولسلي. ففي اليوم الذي كتب فيه خطابه إلى غردون في السابع من يناير ١٨٨٥ كانت قوات حملة النيل قد قسمت قواتها إلى ثلاث مجموعات: واحدة للإمداد على طول النيل من الشلال إلى كورتي، ومجموعة شكلت طابور الصحراء الطائر غادرت كورتي في ذلك اليوم آخر دفعة منها بقيادة (ستانلي كلارك) لتلحق بمن

سبقها إلى آبار جقدول، المجموعة الثالثة بدأت تتكامل قواتها في الحمداب بعد أن غادرت كورتي أول دفعة منها في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٨٤.

كان الإمام المهدي عالما بكل أفعال الجيش الغازي، وجميع تحركاته تصله أخبارها مرتين في اليوم العادي. أما استراتيجية المهدي فإن غردون كان يتصور خطأ أنه سيستمر في الحصار إلى حضور الإنجليز إلى الخرطوم. لذلك كانت مشكلته هي توفير غذاء لحاميته حتى حضور الإنجليز.

إن استراتيجية الإمام المهدي – التي فشل غردون في الوصول إليها حتى بالمنطق – كانت في أن تستمر قواته في حصار الخرطوم لأخذها بالتسليم لكي لا تراق دماء، إلا إذا اقترب جيش ولسلي. ففي هذه الحالة يجب عدم مواجهة قوتين في وقت واحد. وهذا يستوجب تحرير الخرطوم عنوة إذا اقترب جيش ولسلي منها.

لذلك ما كادت أول باخرتين تحملان عشرين جنديا إنجليزيا ومائتين وأربعين من القوات التي أرسلها غردون لإحضار الإنجليز، تغادر (أبا خروق بالقرب من المتمة) حتى أصدر الإمام المهدي أوامره لقواته بالهجوم على الخرطوم لتحريرها.

إن القوات التي كانت قادمة على الباخرتين (بردين وتلحوين) بالقطع لم تشكل خطرا حقيقيا مباشرا على قوات المهدي. وفي الحقيقة فإنهما لم تحضرا لقتال المهدي، وإنما لإيصال شحنة من (الكورنديبف) الملوث (بسالمونيلا) التيفويد لكي يحارب بها غردون القوات المحاصرة حربا بيولوجية. العشرون جنديا من قوات لواء سكس بقيادة كابتن ترافورد كان

الغرض من إحضارهم القيام باستعراض عسكري في شوارع الخرطوم، لإقناع السكان بأن الإنجليز قادمون. بقية الإنجليز الذين كانوا في الباخرتين هم: القائد (سير تشارلز ولسون) وكابتن (كاسكوان) ولفتنانت (استيوارت وورتلي) من الاستخبارات وكانا متخصصين في الحرب البيولوجية. كان لهم ثالث يدعى ميجور (دكسون) ولكنه ضرب في ساقه في معركة أبي طليح.

لم يهتم المهدي بمن في الباخرتين أو ماذا تحملان، ولكنه نفذ استراتيجيته بدقة متناهية.

تحرير الخرطوم:

في تمام الثالثة من صباح الاثنين السادس والعشرين من يناير ١٨٨٥ بدأ الأمير عبد الرحمن النجومي بهجوم لم يكمله على بوابة المسلمية التي تقع في منتصف استحكامات غردون، وأمر قوات محوره الثالث الذي يقوده الأمير محمد ودنوباوي – وقد كان بغابة الخرطوم – عند نهاية استحكامات غردون الغربية، أن تقوم بهجوم تدخل به إلى داخل المدينة وتأخذ قوات غردون من الخلف. تم ذلك الهجوم بدقة.

تبعه هجوم آخر في تمام الثالثة والخامسة والعشرين قام به محوره الثاني بقيادة الأمير أبي قرجه على شرق الخرطوم. كل شيء تم بسرعة فائقة.

اجتياح الكنيسة:

المحور الذي قاده الأمير محمد ودنوباوي انشق إلى ثلاثة محاور **بعد** دخوله الخرطوم. محور لمهاجمة مدفعي منطقة المقرن، ومحور ثان

لمهاجمة قوات غردون على الحصون وكان أكبرها، ومحور ثالث للاستيلاء على الكنيسة، لا لأنها كنيسة، فعندها لم تكن كذلك وإنما كان غردون قد أجرها بعد أن أخلاها القسسة واستعملها مخزنا للسلاح، وأخيرا مهاجمة القصر. هناك كنيسة أخرى كانت بالخرطوم هي كنيسة الأرثوذكس الأقباط وكانت خاوية أيضا من قسستها ولكن لم تستعمل لشيء آخر. الكنيسة الأخيرة لم تهاجم لأنها ليست موقعا حربيا.

الاستيلاء على الكنيسة الكاثوليكية:

في تمام الثالثة والأربعين دقيقة من صباح الاثنين وصل الشق الذي انفصل من محور الأمير محمد ودنوباوي واتجه شرقا، ووصل إلى باب الكنيسة الكاثوليكية. كانت خطة الهجوم مبنية على تسلم مخازن السلاح قبل أن يفكر الجنود في تفجير غرف الذخيرة. لذلك تم الاقتحام من جانبين، الجانب الجنوبي والغربي. لم تطلق النار وإنما تسلق الثوار الحائطين، فوجدوا أن الجنود عندما سمعوا التهليل هربوا إلى الحديقة، ما عدا واحد فقتلوه.

فوات الهجوم التي تسلقت الحيطان الجنوبية كان عليها تأمين المخازن، والقوات التي دخلت من الناحية الغربية كانت مهامها تنظيف الحديقة وحماية الجانب الشمالي والشرقي حتى لا يدخل جنود غردون من هناك. هذا وقد أبعد حامل أي بندقية من الانضمام إلى مهاجمي الكنيسة حتى لا يكون ذلك سببا في تفجيرها. جنود غردون الذين كانوا يقومون بالحراسة لقلتهم لم يحاولوا استعمال بنادقهم أو حتى الوقوف للدفاع عن أنفسهم أو المخازن التي كانوا يحرسونها. هربوا إلى حديقة الكنيسة تاركين بنادقهم في الأمكنة التي كانوا يحرسونها. تم القضاء عليهم سريعا بالسيوف.

الشماس (دومينكو بولوناري) الذي تركه القسسة للإشراف على الحديقة وإدارة طلمبة الري البخارية التي كانت الأولى التي دخلت السودان وكانوا يسقون بها حديقة الكنيسة، سمع ضوضاء الهجوم فذهب إلى باب الحديقة وفتحه، وما كاد يرى حراب الأنصار الطويلة حتى قفله وهرب للاختباء في غرفة عشب كانت بالحديقة. آخرون حاولوا القيام بنفس العمل ولكنهم غيروا رأيهم وخرجوا للبحث عن مكان اختباء آخر فقتلوا. دخل الأنصار إلى غرفة العشب ولكنهم لم يدققوا في البحث وتركوها دون أن يشعلوا بها نارا تنفيذا للتعليمات التي كانت لديهم.

عملية الاستيلاء على الكنيسة لم تأخذ أكثر من عشر دقائق بقوات لم تزد عن عشرين مقاتلا. فالذي حدث أن قائد القوات التي كان عليها الاستيلاء على الكنيسة والقصر، وجد الحراسة ضعيفة في الكنيسة ولم يتصور أن قوات حراستها قد هربت إلى منازلها، واعتقد أن القوات قد تركزت في القصر. لذلك لم يترك بالكنيسة أكثر من عشرين مقاتلا، وتقدم بكامل قوته تقريبا إلى القصر.

الاستيلاء على القصر:

بعد الثالثة والخمسين بقليل كانت قوات الأمير محمد ودنوباوي تتسلق حيطان القصر. جنرال غردون الذي ظل الليل يحاول مراقبة ما يقوم به الأنصار، ما كاد يسمع تهليلهم في غرب الخرطوم وداخل حصونه حتى اقتنع أن مقاومته قد وصلت إلى نهايتها. شعر أنه فقد عمل عام كامل منذ أن غادر محطة بولاق الدكرور في مصر في السادس والعشرين من يناير عام ١٨٨٤.

دخل غردون إلى غرفة ملابسه حيث لبس كسوة الشرف الصغرى

التي هي ملابسه اليومية، وتقلد سيفه، ولبس طربوشا وضع تحته كوفية حريرية. عندما خرج غردون أمر حراسه بعدم المقاومة. عندما وصل إلى المنطقة التي يريد منها النزول عبر الدرج صاح سائلا: أين محمد أحمد؟ ولكن مرسال - حامل راية الأمير ميرغني سوار الذهب - قدر الموقف خطأ وتصور أن غردون يريد إطلاق النار عليهم، فتلقاه بطلق ناري أسقطه على الدرج. غضب المهدي لمقتل غردون، فقد قتل بغد الأوامر المشددة التي أصدرها بعدم قتله.

ضحايا تحرير الخرطوم:

إن عددا كبيرا من الذين أيدوا غردون في حربه ضد الأنصار قد قتل. وهذا ما خشيه الإمام المهدي تماما، لذلك لم يسرع بالهجوم على الخرطوم إلا عندما أصبح في موقف لم يكن معه الحصار وحده كافيا، وذلك باقتراب القوات الإنجليزية.

الذين استشهدوا من قوات الثورة السودانية كانوا قليلين. فأكبر المراجع تحديدا لهذا العدد كان سلاطين إذ قدرهم بما بين ثمانين ومائة (السيف والنار صفحة ١٩٧، نسخة عالم الكتب) وأصغر عدد هو الذي ذكره الكردفاني وهو عشرة (سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي صفحة ٣٥١). والذي لا شك فيه أن جميع رجال الكنيسة لم يكن فيهم غير بولوناري في مسرح العمليات لكي يصاب أو يقتل. وهذا انطبق أيضا على الكنيسة القبطية التي كانت بالخرطوم، ولم يكن بها أحد.

الأوربيون الذين قتلوا في الهجوم على الخرطوم كان أكثرهم من الإغريق. قتل من هؤلاء سبعة بعد أن كاد جورج كلمنتينو أن ينقذهم نسبة إلى صلته القوية بالثوار.

القناصل بالخرطوم قد قتلوا، اليوناني نيكولا ليونتيدس، والنمساوي مارتن هانسل، والأمريكي آسر كلهم قد قتلوا. والجدير بالذكر أن قنصل بريطانيا بور، وقنصل فرنسا هيربن غادرا الخرطوم في الباخرة عباس في العاشر من سبتمبر عام ١٨٨٤، ولكنهما قتلا في قرية الهبه - بأرض المناصير - انتقاما لقتل نائب حاكم دنقلا - جودت بك - لزعيم المناصير النعمان ود قمر في الدبه في التاسع والعشرين من يونيو عام ١٨٨٤.

ماذا حدث بالكنيسة الكاثوليكية:

توقف القتال في تمام التاسعة صباحا. الشماس (دومينكو بولوناري) ظل لساعات بعد توقف إطلاق النار مختبئا في العشب. عند حلول المساء شعر بالجوع والإرهاق فخرج من مخبئه واتجه إلى قطية (غرفة) امرأة تدعى حليمة تقع أمام حائط الكنيسة ولها شباك يشرف على حديقة الكنيسة. دخل إلى قطيتها من الشباك واستلقى على عنقريب (سرير) لها، وطلب منها ماءا وخبزا، فأبلغته بما حدث في الخرطوم، وخوفها من عواقب إخفاء الشماس جعلها تخبر الحراس بالخارج.

حضروا إليه وفي اليوم الثاني أخذوه إلى أمين بيت المال الذي أرجعه إلى حراسة كنيسته التي بقيت مبانيها كما هي لم يمسسها ضر (أوروالدر صفحة ١٥٠).

قبل وصول الإمام المهدي لزيارة المدينة في الثلاثين من يناير، أمر الخليفة شريف بإنزال جرس الكنيسة الكاثوليكية الحديدي الذي في شكل نصف كرة فوقها مطرقة تجذب بحبل. أيضا أمر بإزالة الصلبان التي كانت بالكنيسة وبقبري كمبوني ورايلو، وبالكنيسة القبطية أيضا، وبمقابر المسيحيين غرب كلية الطب الحالية، وذلك لأسباب دينية إسلامية.

الكنيسة الكاثوليكية ظلت كما كانت مخزنا للبارود، لم ينفجر بـــارود بتلك المخازن على طول فترة الحكم المهدوي وإلى أن استولى عليها فـي الرابع من سبتمبر ١٨٩٨ مدير الخرطوم الإنجليزي وحولها مقرا لإدارته. قبرا المطرانين رايلو وكمبوني ظلا هناك إلى أن حضر أوروالـدر والأب بان هولزر في سبتمبر عام ١٨٩٩ وطلبا إخلاء الكنيسة. عندما فشلا فـي إقناع السلطة البريطانية بتسليمها الكنيسة طلبا أخذ عظـام المطرانيـن. سمح لهما المدير بأخذ العظام فنبشا القبرين وتسلما العظام فعلا.

ماذا حدث للقسسة والراهبات:

بعد تحرير الخرطوم قرر المهدي أن عاصمته هي أمدرمان. أخليت الخرطوم وأرسل الخليفة عبد الله أمرا إلى الأبيض بإحضـــار الراهبـات والرهبان إلى العاصمة الجديدة راكبين على دواب وحاملين ما يكفيهم من طعام. اعتذر أوروالدر بأنه لا يستطيع السفر لإصابته بالدسنتاريا، فبقـي هناك شهرا إلى أن شفي وبقي معه جميع القسسة.

الراهبات اللاتي وصلن إلى أمدرمان كن: تريزا قريقوليني، كونسـتا كورسي، كاترينا شنكريني، اليزبتا فينتوريني، ماريا كابريني والراهبـة السودانية فورتوناتا كواسك.

الرهبان عندما حضروا إلى العاصمة في أبريل عـام ١٨٨٦ كـانوا ينقصون واحدا هو الأب بنومي الذي هرب من الأبيض إلى مصر. هـذا ولم يجدوا الإمام المهدي، فقد مات منذ عشرة أشهر.

عمليات الهروب:

اقتنع الإمام المهدي ومن بعده الخليفة عبد الله أن خروج الأوربييـن

عامة من السودان ستكون عواقبه وخيمة، نسبة للمعلومات التجسسية التي يمكن أن يدلوا بها إلى أعدائهم الإنجليز والمصريين بمصر. كما أن المسيحيين من جانبهم ساعدوا كثيرا في إقناع المهدي ومن بعده الخليفة عبد الله بعدم رغبتهم في العودة لبلادهم بعدة طرق:

أولا: عمليات تبني الإسلام استمرت، ليس اقتناعا، وإنما وجدوها أسلوبا أسهل للتعايش مع ظروف من الصعب عليهم فهمها. وقد تزوجت الراهبات زواجا صوريا ما عدا واحدة كان زواجها حقيقيا. وهذا يعطي الموضوع بعداً آخر، إذ إنه ليس من السهل أو المقبول من الناحية الإسلامية تسليم مسلمين إلى سلطات أو بلاد مسيحية أو هي في نظر المهدية محكومة بسلطة كافرة. الراهبة الوحيدة التي تزوجت زواجا غير صوري وأنجبت أطفالا من زوجها هي الراهبة تيريزا قريفوليني.

ثانيا: رجع المسيحيون المتمسحون بالإسلام شكلا يتملقون المهدي والخليفة في أنهم لا يريدون الخروج من جنتهم إلى محنتهم (سلاطين، صفحة ٢١٠ نسخة عالم الكتب)، بالطبع فإن خلطهم للعقلية المصرية التي كانت تحكم السودان قبلا بعقلية رجال المهدية كانت سببا في لجوئهم لهذه السياسة.

أمير المنافقين سلاطين:

إن أكبر منافق عرفته المهدية كان سلاطين، فقد تخصص في النفاق بشكل لم يستطع فرد أن يجاريه فيه. رئيس أركان حرب غردون اللواء إبراهيم فوزي في كتابه (السودان بين يدي غردون وكتشنر) وصف سلاطين بالكلمات التالية: (كان ينافق كل شخص على هواه، ويلبس الملابس الرثة) (السودان بين يدي غردون وكتشنر، صفحة ١/٣١٤).

بدأ سلاطين النفاق قبل تسليمه للمهدية، فقد ادعى الإسلام لكي ينافق جنوده (سلاطين، صفحة ١٠٩، نسخة عالم الكتب) حيث قال لجنوده: "وقد سمعت أن البعض يعدني أجنبيا غير مؤمن بالإسلام، ولكني أقول لكم إني مؤمن كما أنتم مؤمنون، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله".

عندما قابل سلاطين الخليفة في الرهد قال له: "شكرا لله الذي أبقاني حتى أرى هذا اليوم، لقد ذهب عني تعبي عندما رأيت طلعتك" (صفحة ١٤٩ من كتابه.

عندما قدمه الخليفة إلى المهدي رد على المهدي قائلا: "أجل يا مولاي، لقد سررت ونلت السعادة بقربي منك" ثم بايعه على التوحيد بالله وعدم ارتكاب المعاصي وعدم المعصية والجهاد في سبيل الله (صفحة ١٥٢ من كتابه نفسه).

بالقرب من الخرطوم طلب منه الإمام المهدي أن يكتب خطابا إلى غردون يطالبه فيه بالاستسلام. كتب سلاطين خطابا بالألمانية إلى غردون يصف فيه ضعف الجيش المهدوي، ويسوق المعاذير لأعماله عندما كان حاكما بالغرب.

لسوء حظه فإن هذا الخطاب الذي أرسل في الخامس عشر من أكتوبر ١٨٨٤ قرأه - غردون الذي يفقد بعد النظر - وأراد أن يرفع روح جنوده المعنوية فأصدر منشورا إلى جنوده وأهل الخرطوم ينقل فيه حديث سلاطين عن ضعف قوات المهدي. وبالطبع قام رجال استخبارات المهدية بالخرطوم بإرسال المنشور إلى الأمير أحمد ود سليمان - أمين بيت المال - الذي بدوره قدمه إلى الإمام المهدي.

أمر المهدي بتقييد سلاطين، وفيما بعد أرسل إلى سجن أمدرمان،

وحتى وهو بالسجن استطاع بنفاقه أن يرتب خطبة عصماء ألقاهـا عند حضور الخليفة للسجن يطلب فيها السماح والغفران على ما ارتكب مـن ذنب. وقد أدت الخطبة إلى إطلاق سراحه وسراح ليتون حاكم بحر الغزال السابق (كتاب سلاطين صفحة ٢٠٦).

عندما أخذهما الخليفة إلى منزل المهدي قال الأخير لهما: إنـه تسلم خطابات من قائد الجيش بمصر يقول فيها إنه قد أسر أقارب المهدي الذين كانوا بدنقلا وإنه يعرض أن يقايض بهم على ما عند المهدي من الأسرى الذين كانوا مسيحيين. وقال: "لقد قررنا أن نجيب بأنكم جميعا مسـلمون وأنكم متحدون معنا ولا ترغبون في أن نقايض عليكم برجال ولـو مـن قرابة المهدي"، وعندما سألهما: "ولكن لعلكم تحبون العودة إلى النصارى؟" فرد هو وليتون بـ: "إننا لا نرغب في تركه وأن مسرات الدنيا كلـها لا تغرينا بمفارقته وأن بقاءنا معه يفيدنا لأنه يرشدنا إلى طريق الخـلاص" (سلاطين صفحة ٢٠٨).

هذا في حين أن الذين كانوا يقولون إننا نريد الرجوع يسمح لهم بذلك فورا. فعندما قدم المصري الشيخ خليل في صحبة عبادي للخليفة ليبـادل أسرى توشكي ببقايا ممتلكات غردون والصلح مع مصر، سأله الخليفـة، هل يريد الرجوع أم البقاء؟ رد الشيخ خليل "إن من رأى النور لا يذهـب إلى الظلمة". عندما سأل الخليفة العبادي نفس السؤال رد عليه الأخير إنـه رسول ويريد العودة فسمح له فورا (عشر سنوات سـجنا فـي معسـكر المهدي، الأب أروالدر صفحة ٣٦٢).

من هم الذين كانوا من أصول غير مسلمة في نهاية المهدية:

من الألمان تبقى في نهاية المهدية (نيوفيلد) وكان مسجونا لجريمتـه

في الإتيان بأسلحة للكبابيش، قبضته قوات النجومي بالقرب من دنقلا. نيوفيلد تزوج حبشية في السودان ولدت له ولدا وبنتا. بعد أن أخرجه الإنجليز من السجن المهدوي ورجع إلى بلاده اشتغل جاسوسا في الحرب العالمية الأولى لبلاده ضد إنجلترا.

الإيطاليون:

١-جوزيف كلنق: سمي بعد إسلامه بيوسف، تزوج قبطية تدعى ماريا أنجبت له ولدا، هذا وقد كانت تسكن معه أخته.

٢-بيترو أقاتي: وقد أسمي بعد إسلامه بيوسف. حضر بيترو إلى السودان أولا من إيطاليا للعمل في كنيسة إفريقيا الوسطى – مجلس الوزراء الاتحادي الحالي – وقد استطاع صنع طوب جيد بين عامي ١٨٥٤ و ١٨٧٢ للكنيسة. خلال المهدية بنى منزل الخليفة عبد الله التعايشي. هذا ولم يترك السودان بعد حضور الإنجليز، وأشرفت عليه في كبره الكنيسة الكاثوليكية.

٣-منهم أيضا جوزيف كوستي (كوزي) الذي تغير اسمه بعد إسلامه إلى محمد يوسف. كان في طريقه إلى مصر عندما التقى به غردون في بربر عام ١٨٨٤. عينه غردون مندوبا له ببربر، وسلمه الشفرة التي يرسل بها أخباره إلى مصر أثناء الحصار. أيد الإمام المهدي وتزوج سودانية توفيت خلال المهدية ولكن بقيت بنته منها.

٤-سلم أيضا في كردفان (ديبو) بعد إسلامه أصبح اسمه (يوسف) وقد كان متزوجا من مسيحية سورية تدعى ماريا بنت جورج الخال، هذا ولم تنجب له أطفالا.

قبارصة:

١-استسلم في كردفان كوستي كارالامبو ثم تزوج سودانية ولدت له ولدين وبنتين، اسمه خلال المهدية كان (رجب).

٢-في الخرطوم استسلم جوزيف سولومون وأسمي يوسف ولم يتزوج.

الإغريق:

كان الإغريق أكبر جالية أجنبية بالسودان، وكانوا في فجاج مختلفة منه، الذين سلموا بكردفان هم:

١-دمتري كوكورامبو وأسمي آدم. تزوج آدم كبيرة راهبات كنيسة الأبيض تريزا قريقوليني، وهي الراهبة الوحيدة التي تزوجت زواجا غير صوري إبان المهدية. ورغم أنها أنجبت له خلال المهدية ولدا واحدا إلا أنها حملت على أن تعيد مراسيم زواجها إلى مراسيم مسيحية، فتزوجت زوجها مرة أخرى في الخارج. ولدها الأول لكي يشارك في ارثها وأرث والده اضطرها لترفع قضية إثبات نسب في إيطاليا مستقبلا.

٢-بانايوتي ترمبو، وأسمي بعد إسلامه أحمد، تزوج فكتوريا جورج الحكيم ونم ينجب منها أطفالا.

٣-باندالي ديمترولا، أسمي عبد الله وكان متزوجاً من مصرية من القاهرة وله منها ولد.

٤-جورج كالامانتينا، اتخذ اسم جابر بعد إسلامه، وكان قد تزوج

سودانية تدعى زايده، ولدت له ولدين وبنتا. كان جابر مقربا من الإمام المهدي، وكان المهدي قد أرسله إلى غردون فذهب وعاد إليه.

-جوزيف سافا أصبح اسمه بعد إسلامه يوسفا. كان يوسف متزوجا من قبطية ولدت له ولدا واحدا.

٦-أنتوني سيريكا أصبح اسمه بعد إسلامه عبد اللطيف. كان عبد اللطيف متزوجا من قبطية ولدت له ولدا ولكنها توفيت بعد معركة كرري بستة أيام، أي في الثامن من سبتمبر ١٨٩٨.

٧-جورج كوكو، أسمي ابراهيم، وكان متزوجا من قبطية. أولاده منها ولدان وبنتان.

٨-دمتري جورجيو أسمي بعد إسلامه عبد الله. زوجته كانت قبطية وله منها بنت.

٩-هاج يني اسمه بعد إسلامه مصطفى. زوجته كانت سودانية وأنجبت له ولدين وبنتا.

الأغريق الذين سلموا في الخرطوم:

١-منولي ديكاو يني أسمي بعد إسلامه آدم. كان متزوجا من إغريقية تدعى آيادا ولم ينجبا أطفالا.

٢-نيكولا بابادام، أسمي أحمد. تزوج قبطية ولدت له ولدين وبنتا.

٣-يني كيركاتي، أسمي محمد صالح، وكان متزوجا من بنت جورج بك الحكيم الذي قتل في شيكان وكانت تسمى روزا ولدت له ولدا

واحدا.

٤-بولوكراتي داريللا، أسمي بعد إسلامه إبراهيم. كان متزوجا من إغريقية تدعى ماريا ولم ينجبا أطفالا.

٥-جورج أنستيني، أسمي بعد إسلامه عبد الله ولم يتزوج.

٦-بوتي دمتري بني، لم أتعرف على اسمه بعد إسلامه، ولكنه كان يعيش مع أمه القبطية ولم يتزوج.

٧-نيكولا بيكريلي، أسمي بعد إسلامه عبد الله وتزوج قبطية ولدت له ولدا واحدا.

إغريق القضارف ودوكه:

١-نيكولا منسي، أسمي بعد إسلامه محمد نور تزوج قبطية ولدت له ثلاثة أولاد وبنتين.

٢-الإسكندر كي يو لوبس، أسمي بعد إسلامه عبد الله تزوج أثيوبية أنجبت له ولدين وبنتين.

٣-نيكولا بيكريلي، أسمي بعد إسلامه عبد الله، تزوج قبطية ولدت له ولداً واحدا.

إغريق بربر:

نيكولا ياكوبولا، أسمي بعد إسلامه عبد الله، تزوج في بربر بنت جورج اسطامبولي وولدت له ولداً واحداً.

إغريق المسلمية:

نيكولا يارندوري، أسمي بعد إسلامه إبراهيم، تزوج حبشية وأنجبت له ثلاث بنات وولدا.

إغريق تركوا في حلفا:

١-انطوان بابادوبلو، أسمي بعد إسلامه صالح ولم يتزوج.

٢-بانيوتي الإسكندر، أسمي اسكندر وتزوج قبطية ولم ينجب.

إغريق من الباخرة عباس:

عندما جنحت الباخرة عباس التي كانت تقل استيوارت والقنصل الفرنسي والإنجليزي في أرض المناصير، حيث قضى المناصير على أكثر من كان على السفينة انتقاما لمقتل شيخ المناصير النعمان ود قمر بقي من الإغريق اثنان هما:

١-دمتري يارقوبولو، وأسمي بعد إسلامه عبد الله. انتهت المهدية دون أن تكون عنده زوجة أو أطفال.

٢-نيكولا كنارا، لم أتعرف على اسمه العربي بعد إسلامه ولكنه تزوج قبطية أنجبت له بنتين.

إغريق لم تعرف أماكن استسلامهم:

كوستا إيفانقلو، أسمي بعد إسلامه موسى، لم أتعرف على أصول زوجته ولكنه كان متزوجا وله ولد.

الأرمن:

١-من الأرمن الذين استسلموا في الخرطوم أرمني يدعى (أرتــــن) أبقى على اسمه ولم يتزوج.

٢-من القضارف جاء أرمني آخر يدعى جوزيف أرتن، كانت معــه أمه القبطية وأخوه ساركيا، هذا ولم يتزوج جوزيف.

سوريون مسيحيون من كردفان:

١-يوسف قبيلي، أسمي بعد إسلامه باسمه يوسف، جاء مـــن جبــل لبنان وتزوج ماريا نعوم بلدي ولم ينجبا.

٢-شكري تفيبا من حلب في سوريا احتفظ باســـمه بعـــد إســلامه وتزوج سودانية أنجبت بنتين وولدا.

٣-جورج اسطمبولي اسمه بعد إسلامه محمد سعيد، تزوج قبطيــــة ولدت له ولدين وبنتا.

٤-نعوم موصللي، أسمي بغد إسلامه عبد الحليم، تزوج قبطية ولدت له ولدا وثلاث بنات.

٥-أنطون تاوا، اسمه بعد إسلامه موسى ولم يتزوج.

سوريون مسيحيون من الخرطوم:

١-عبد الله تيرازي، عبد الله هو الاسم الذي اتخـــذه بعـــد إســلامه واختفى اسمه الاصلي الأول ولم يتزوج.

٢-قوبي أيوب، أصبح اسمه بعد إسلامه أيوبا وكصاحبه عبــــد الله

تيرازي لم يتزوج.

٣-نعوم عبجي، استمر باسمه نعوم بعد إسلامه، وكان قد استسلم مع من استسلم في الباخرة عباس والزوارق التي صاحبتها. كانت الباخرة تقل نائب غردون استيوارت والقنصل الفرنسي هيربن والقنصل الإنجليزي بور، وقضى على أكثرهم المناصير في قرية الهبه في سبتمبر ١٨٨٤، وكان نعوم أحد الناجين. كان نعوم متزوجا من حبشية ولدت له ولدين. ابنه يوسف تزوج وأنجب حفيدا لنعوم.

٤-جورج غالي، أسمي خضر بعد إسلامه وهو من حلب، هذا ولم يتزوج.

٥-عبد الله عبجي، هو أخ نعوم عبجي، قد نسي اسمه الأول قبل إسلامه. تزوج وأنجب ثلاثة أولاد وثلاث بنات.

٦-حبيب فرانسس، استمر بعد إسلامه باسم حبيب ولم يتزوج.

يهود استسلموا في الخرطوم:

١-موسى بسيوني، استمر باسم موسى بعد إسلامه وكان متزوجا من يهودية، تزوج بعدها قبطية. وعليه هو من القلائل الذين تزوجوا أكثر من زوجة واحدة. كانت لزوجته القبطية بنت عاشت معهم، أما هو فلم ينجب حتى معركة كرري.

٢-إسحق بسيوني، استمر باسم إسحق بعد إسلامه، وكان متزوجا من يهودية أنجبت له ولدين وبنتا.

٣-ابراهيم إسرائيل، استمر بعد إسلامه باسم إبراهيم، تزوج سودانية أنجبت له بنتين وولدا.

٤-خادر، لم يعرف اسمه الأول، ولكن اسمه بعد إسلامه أصبح عبد النبي، تزوج سودانية أنجبت ولدا وبنتا.

٥-نسيم هيفاس، استمر بعد إسلامه باسم نسيم، تزوج سودانية ولدت له بنتا وولدا.

٦-داؤد منديل، استمر باسم داؤد بعد إسلامه وتزوج مصرية أنجبت له ولدين وبنتا.

٧-جوزيف سليمان، أسمي بعد إسلامه يوسف ولم يتزوج.

يهود من بربر:

مراد بسيسي، استمر بعد إسلامه باسم مراد، وكـــان متزوجـــا مـــن يهودية وله منها طفلة.

يهود من كسلا:

المالح ظبت، أسمي بعد إسلامه محمد سعيد وكان متزوجا من يهودية ولم ينجبا خلفا.

عائلات مسيحية:

إن الذين ماتوا إبان العهد التركي كانت نساؤهم وأطفالهم يواجـــهون مشاكل لا حد لها. فعند موت أحدهم فان أهلـــه فـــي الخـــارج يطـــالبون قناصلهم في مصر باسترداد مخلفاتهم. وبدون استثناء كانوا جميعا تقريبـــا

يعيشون مع نساء بدون عقد زواج. لذلك لا يحق لهم إرث فيما ترك الزوج. الجميلة منهن وصغيرة السن كانت تذهب لتعيش مع أوربي آخر.

في فترة المهدية لم يكن من الممكن السكن مع امرأة دون عقد زواج، ولم يكن هناك تأثير لقنصل يرجع ممتلكات المتوفى إلى شخص يطالب بها خارج نطاق البلاد. إن الذي كان يخلفهم من أبناء وزوجة أو أب وأم في السودان هم الورثة الشرعيون لما أبقى. إذا لم تكن لديه زوجة أو أطفال أو أب أو أم او أخوة فإن أبناء جلدته هم الذين يرثون ما ترك.

العائلات التي وجدتها المهدية بالسودان ومات عائلها أو مات عائلها إبان فترة المهدية، فإنها تضم إلى قريب زوجها أو والديها أو إلى رجل آخر يتزوج بالأرملة ويكون مسئولا عن معيشة أبنائها. بالإضافة إلى ذلك فإن بيت المال كان دائما يستطيع أن يقدم المعونة.

العائلات التي بقيت بعد رحيل عائلها إلى نهاية المهدية هي:

١-عائلة لبتون بك الإنجليزي - وهو المدير السابق لبحر الغزال - أسمي بعد إسلامه عبد الله، توفي عبد الله في أمدرمان وترك زوجة سودانية تدعى زنوبه وبنتين منها. تزوجت زنوبه بعد موته الطبيب المصري حسن زكي وعاشت معه مع بنتيها.

٢-عائلة استافرو الإغريقي بقيت منها بنته فقط، وقد ضمت إلى عائلة دمتري جورجيو.

٣-عائلة نيكولا الإغريقي الذي قتل في دارفور، بقيت له بنت فقط ضمت إلى عائلة هاج يني.

٤-عائلة فاسيلا يارقوبولو الاغريقي وكان قد قتل يوم تحرير

الخرطوم، بقي له ابن واحد هو ليونيدا ضم إلى عائلة دمـــــتري كوكورامبو.

٥-عائلة جورج بك الحكيم - الذي قتل في شيكان - كان متزوجــا من سودانية أنجبت له ولدا يدعى دمتري وبنتين همــا فكتوريــا وروزا. سكنوا مع عائلة الإغريقي بنيوتي وحتـــى بعـد زواج فكتوريا وروزا.

٦-عائلة فاسيلا الياس، ترك فاسيلا بنتا واحدة كانت تسكن مع عائلة اسكندر كويوبولوس.

٧- عائلة ماركو بك. ماركو كان مديرا لغازوغلي وكان متزوجــا من سودانية أنجب منها ولدا يدعى الكاك.

٨-عائلة الياس اسلامبوليه السوري، كان الياس متزوجا وله بنــت وكانوا يسكنون مع أخيه جورج اسلامبوليه.

٩-عائلة بانيوتي، الوالد قتل في العيلفون، والابن دمتري بـــانيوتي بقي مع أمه وجدته.

١٠-عائلة فتح الله جهامي السوري، ترك فتح الله زوجة وابنين هما ميخائيل وإبراهيم، وقد سكنوا جميعا مع مبارك خليل القبطي.

١١-عائلة نعوم بلدي، كان نعوم قد قتل في شات وتـــرك ولديــن وبنتا. البنت تزوجت أشاكلي آرتن وأنجبت منه ولـــدا، كلـــهم سكنوا مع يوسف قبيلي.

١٢-عائلة الياس كيما، الياس قتل في شيكان وكان متزوجـــا مـــن

زوجتين، واحدة حبشية ولدت له ولدا يدعى اسكندر، والثانية سودانية ولدت له بنتا أسميت ماريا.

١٣- عائلة موريانا اليهودية، توفي نسيم موريانا في أمدرمان وبقيت عائلته التي تتكون من أم مصرية وولدين في أمدرمان.

ماذا كان يعمل غير المسلمين؟

١/ سلاطين كان أول العاملين مع الحكومة. حسب التعاليم الإسلامية فإن غير المسلمين لا يضمون إلى الجيوش الإسلامية. ورغم أن كل من وجد في السودان إبان المهدية أدعى الإسلام، إلا أنه على ما يبدو فان الحكومة لم تثق في إسلامهم ولم يضموا إلى الجيش، وربما كان بسبب التوجس الذي غشى مسألة سلاطين. الأمير يونس الدكيم طلب من الخليفة أن يصحبه سلاطين إلى سنار كمستشار عسكري ولا يشترك عمليا في القتال. قبل الخليفة وأرسله مع الأمير يونس، ولكن ما كاد يصل إلى ود العباس على مشارف سنار حتى أرسل له الخليفة لكي يعود إلى أمدرمان ففعل. شك الخليفة في وفائه، أما ما قاله سلاطين في كتابه عن ذهابه الى ود العباس (إنه كان يفكر في الهرب من السودان).

إن سلاطين ظل يكتسب عيشه إلى لحظة هروبه من السودان من بيت المال. أما عمله فقد كان مع الملازمين الذين يجلسون خارج بيت الخليفة.

٢/ الشماس بولوناري، كان عمل الشماس دومينيكو بوليناري قبل تحرير الخرطوم هو الإشراف على حديقة الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم وإدارة طلمبتها التي كانت تعمل بماكينة بخارية. بعد تحرير الخرطوم ونجاته من الموت، طلب منه أن يستمر في عمله السابق. استمر كذلك

ومرتبه ظل يحصل عليه من بيت المال إلى أن توفي.

٣/ لبتون، كان لبتون كثير الحمق، حاول الكثيرون مساعدته، ولكن حمقه أضاع عليه الكثير من هذه المساعدات. الدكتور حسن زكي - الذي عمل في مفجرات الذخيرة - طلب أن يعمل معه وهو يعرف أنه لا يملك خبرة في هذه الصناعة أو في الكيمياء، فأبقاه معه مدة. أيضا ادعى سلاطين أن لبتون يعرف الكثير عن البواخر فأخذ للعمل فيها ولم يكن يعرف أي شيء عنها.

٤/ الراهبات، كن أهم مجموعة لا تملك صلة بالحكومة أو أعمالها، فقد عملن في حياكة الملابس التي يستعملها الذاهبون للجهاد.

٥/ أوروالدر، جوزيف أوروالدر عمل أعمالا كثيرة قليلة العائد ولكن كانت تكفيه وتكفي لمساعدة بعض الراهبات. أول عمل قام به كان صناعة الصابون مع لبتون الإنجليزي الذي كان حاكما لبحر الغزال. عندما مات لبتون ترك أوروالدر هذه الصناعة واتجه إلى صناعة (صنارات) صيد السمك من أسلاك التلفونات القديمة. عندما ضعف سوقها ولم يجد مشترين لها بدأ صناعة (الزراكش) التي توضع في نهايات الثياب لتجميلها.

أهم المراجع

-تاريخ المسلمين - المكين بن العميد - ليدن ١٦٢٥.

-كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - عبد الرحمن بن إسماعيل ابو شامة - القاهرة ١٨٧٠.

-مروج الذهب ومعادن الجواهر - المسعودي - باريس ١٨٦١-١٨٧٧.

-صورة الأرض - ابن حوقل - اليونسكو بيروت.

-تاريخ الرسل والملوك - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - ليدن ١٨٧٩-١٩٠١.

-كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - المقريزي - القاهرة ١٩١١-١٩٢٧ (ثلاث مجلدات).

-طبقات ود ضيف الله - يوسف فضل حسن.

-تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث - الأب فانتيني - الخرطوم ١٩٧٨.

-تاريخ وأصول العرب بالسودان - الفحل الفكي الطاهر ١٨٧٩.

-السودان بين يدي غردون وكتشنر - إبراهيم فوزي ١٣١٩هـ (مجلدان).

-من أبا إلى تسلهاي - عبد المحمود أبو شامه ١٩٨٦.

-فتوح البلدان - البلاذري - ليدن.

- الكامل في التواريخ – ابن الأثير – ليدن ١٨٥١.
- مجلة الينبوع الحي – إصدار الكنيسة الأرثوذكسية المصرية.
- الخرطوم – إبراهيم أبو سليم – ١٩٧٩.
- منشورات المهدية – إبراهيم أبو سليم ١٩٧٩.
- الفداء في دفع الافتراء – محمد عبد الرحيم.
- السودان والثورة المهدية (جزءان) – مكي شبيكه ١٩٧٨-١٩٧٩.
- دانيال كمبوني – دومنيكو أجاسو – القاهرة ١٩٩٦.
- مخطوطة كاتب الشونه – أحمد بن الحاج أبو علي.
- تاريخ السودان الحديث – ضرار صالح ضرار – بيروت.
- سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي – عبد القادر الكردفاني.
- السيف والنار – سلاطين – نسخة عالم الكتب.
- سهم العروبة – عثمان حمد الله – مطبعة الشمس، الخرطوم ١٩٤٩.

- Sudan Notes and Record (KUSH) 1918.
- History of the Arabs in Northern Sudan, H. Mc. Michael.
- Sudan Archives Documents, Durham, U.K.
- Ten Years Captivity in the Mahadi's Camp. Fr. Ohrwalder 1892.

- Gordon of Khartoum, Turnbull, Folkeston.
- Gordon at Khartoum, W.S. Blunt, 1911.
- The White Nile, A. Moorehead, 1960.
- The Blue Nile, A. Moorehead, 1962.
- The War Office Records and Papers.
- A Prisoner of the Khalifa, Ch. Neufelt, Chapman 1899.
- The Nile, Budge, 12th Addition 1970.
- Siege and Fall of Khartoum, M. Nushi, vol. 1 & 2.